بسمة العوفي

قهوة
وأيس كريم



دار الشروق

قهوة
وايس كريم

قهوة وأيس كريم
بسمة العوفي

الطبعة الأولى ٢٠١٨

تصنيف الكتاب: أدب / قصص قصيرة

© دار الشروق
٧ شارع سيبويه المصري
مدينة نصر - القاهرة - مصر
www.shorouk.com
dar@shorouk.com

رقم الإيداع ٢٣٣٤٣/ ٢٠١٨
ISBN 978-977-09-3536-1

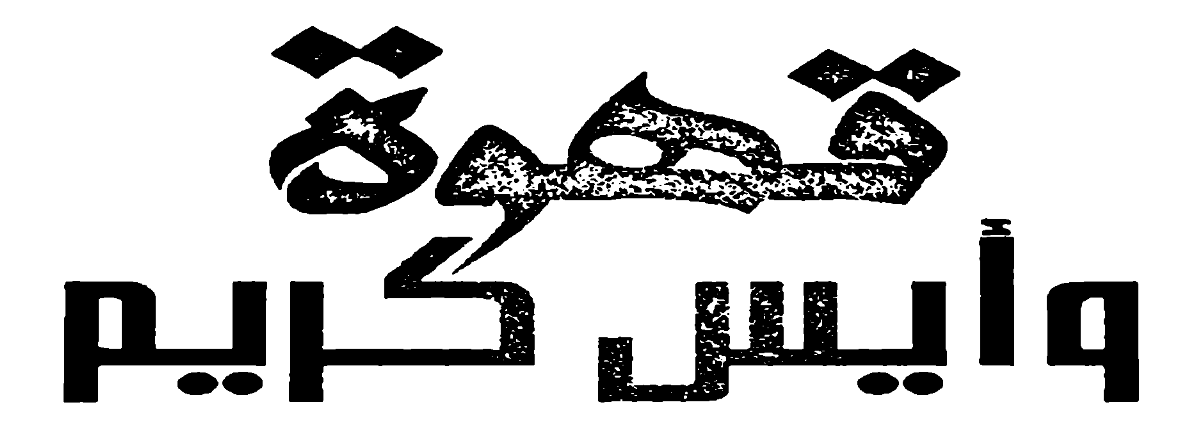
الغلاف : أحمد عارفين

العوفي، بسمة،
القاهرة: دار الشروق، ٢٠١٨
تدمك ٩٧٨٩٧٧٠٩٣٥٣٦١
١ - قصص قصيرة
أ. العنوان

قهوة وأيس كريم/ بسمة العوفي
١٣٥ ص، ٢٠سم
رقم الإيداع ٢٣٣٤٣/ ٢٠١٨

٨١٣

بسمة العوفي



دار الشروق

المحتويات

إليك

يد خفية

جُن جنون المتبقين في المنطقة من الناس. فكلما سقطت قنبلة، دمرت بيتًا، قتلت أرواحًا، وشردت أسرًا ويتّمت أطفالًا أو قتلت ذويهم، وبعد يومين ينبت مكان البيت رسمة. رسمة ملونة على الأنقاض، بهية الألوان وطازجة الرائحة والملمس، كأن الذي رسمها كان يعلم أن قنبلة ستسقط هنا، فجهز عدته، أو لعله هدم البيت ليرسم.

مَن يرسم في هذا الخراب؟ من الذي لا يزال يملك روحًا تهوى الفن في هذا العالم؟ ومَن الذي مازال يمتلك أدوات رسم صالحة في مدينة خربتها الحرب وشوهت آثارها ومعالمها؟ لقد اختفت الشوارع، وأصبحت المدينة أكوامًا من الركام، يتحرك الناس أسفلها وبينها، يتنقلون خلال الجدران المقصوفة، يصنعون أنفاقًا بين البيوت المدمرة ويمرون خلالها.

الألوان البهية والرسوم البديعة لفتت الأنظار في البداية، ظن البعض أنها آخر خيوط الأمل، أو أنها كانت هنا قبل الدمار، ولكن ملمس الألوان اللزج، ورائحتها الطازجة، دفعت الكل للتساؤل. مَن يفعل هذا على جدران لن يراها أحد، سوى طرفين: قناصة وقتلى، مجرم ومذنب، قاتل ومقتول. وكأن البشرية عادت في

صورتها الأولى، قابيل وهابيل؟! من المجنون الذي يجرؤ أن يكون طرفًا ثالثًا في معادلة الدمار؟! مَن الذي لا يزال يحب هذه المدينة، وهل يحبها حقًّا أم يسخر منها برسومه؟ هل يحاول تجميل الخراب والقبح، أم لفت الأنظار إليه؟

هذا الرسام الخفي، لا يعرفه أحد، ولم يره أحد، ولا يعرف الطرفان المتقاتلان من أين يأتي بألوانه وأدواته. كأن هناك يدًا عملاقة، تخترق السماوات وتمد يدها وسط طائرات القصف والقنابل لترسم، لأن أحمر الدماء وحده لا يعجبها، أو أن رمادي الغبار لا يشبع هوسها ويملأ رئتيها. ترسم، تُجمّل الخراب، تكتب عبارات هنا وهناك أحيانًا، تمنح العابر - إذا عبر أحد - بعض الأمل، وربما الحلم، بأن تعود المدينة العظيمة كما كانت.

كانت الحرب المسعورة قد دمرت واحدة من أعظم مدن العالم. شهدت حضارة عريقة، بأناس طيبين وبُسطاء، ولكنهم غريبون أيضًا، فالعند راسخ في عقولهم، وما إن يبدأ شيء عندهم إلا ويصعب - وأحيانًا يستحيل - انتهاؤه. لقد دمرت الحرب أرواح الناس قبل أن تدمر مدينتهم، نهشت طيبتهم وكرمهم وأخلاقهم، قتلت نخوتهم وإيثارهم، التهمت حسّهم بالخير والجمال، ولذلك، استمرت لأعوام.

استطاع هذا الخفيّ أن يوقظ شيئًا ما في الأرواح العفنة. أن يحوّل الحوائط الناجية من القصف إلى ألواح موسى. كتب ورسم عليها وصايا كما النبي. كان يرسم طيورًا محلقة، بيضاء وبهية، تحمل بدلًا من أغصان الزيتون، زهرات من الياسمين، عناقيد من العنب،

وزهورًا من الليلك. الطيور البيضاء الضخمة تحلق على جدران المدينة، تذكر أهلها برائحتها الطيبة التي عطرت هذه الشوارع ذات يوم، قبل أن تصبح رائحتها بارودًا وجيفًا.

لم يكتفِ الرسام بالطيور البيضاء؛ كان يرسم قُبلات، أطفالًا يمسكون بالونات ملونة، وشطيرة شهية. شجرة ياسمين تعرش على سور بيت، وأطفالًا يلعبون الكرة في شارع، وصبايا جميلات يسرن بفساتين زاهية. حبيبين يستتران تحت مظلة ملونة من المطر، وعربة أيس كِريم متجولة، ورجال وسيمين يرتدون ملابس أنيقة ويدخنون السيجار. كان يكتب تحتها جملًا قصيرة مختزلة، مثل «اشتقت»، و«راجعين يا هوا». وأحيانًا يبدلها بأبيات من الشِّعر، مشبعة وغنية باللغة التي كانت يومًا وسيلة للعشق قبل أن تنقلب إلى حجارة للتراشق.

رسائله التلغرافية كانت مثل الإبر، تدغدغ ذاكرة العقل قبل القلب. يراها القتلة في تجولهم بالسيارات المكشوفة في أرجاء المدينة فيهزءون بفاعلها، ويشعرون بشبح خفي يحاربهم، لا يستطيعون شق رأسه أو ثقب جسده بالرصاصات كما لوحات النيشان. ويراها المحاصَرون؛ فيشعرون بأن هناك مناضلًا، أو ربما جيشًا، لم يفقد الأمل بعد.

زينت الرسوم والعبارات الأنقاض. وكان الخفي يتفنن في رسم أشياء لم تعد موجودة في المدينة العظيمة، يرسم ذاكرة الناس التي طمستها الحرب وبدلتها بمشاهد القتل. يتسلل بين قنبلة وأخرى، يقفز بين الدبابات، ويتنكر في زيّ القتلة. يمشي في

جنازات الجثث، يحمل على ظهره أدواته كما يحمل المحاربون أسلحتهم. يعتبر مهمته مهمة مقدسة، إشعارًا للحياة في مدينة استقر فيها ملاك الموت. لوحاته هي الدليل الوحيد على أن الخراب لم يشوه كل شيء تمامًا، وأنه لا يزال هناك نبتة صغيرة تشق طريقها وسط الأرض الجافة.

يخطط القتلة لجرائمهم كما تفعل الذئاب بأعشاش الدجاج. ويخطط الخفي للوحاته كأنها خريطة خروج من متاهة. يعمل بشكل منظم ودقيق. لا مساحة للتفكير في الرسمة ومعناها، هو يرسم ذاكرته أيضًا، ذاكرة المدينة التي كان فيها صبيًّا ذات يوم، قبل أن يكبر ويجد نفسه محاصرًا بالفزع، وبوحوش بشرية كانوا في انتظار مَن يطلق لهم صافرة البدء.

يجمع كل ما قد يكون مفيدًا في عمله؛ أكياسًا فارغة تحلق كبالونات ميتة، وبقايا متجر تم تفجيره، ومفرش طاولة بلاستيكيًّا متهتكًا، وستارة تركت نافذتها، وفرشاة حلاقة لن تلمس ذقن صاحبها بعد الآن. وفي بحثه عثر على كنز بالصدفة في محل دهانات تم قصفه.

أصبح ينتظر عربات الإنقاذ التي ترفع الأنقاض لتنقذ المصابين وتجمع جثامين الضحايا، ليبحث تحت الركام. استطاع تحديد ورصد أماكن محال الدهانات التي كانت في المدينة ذات يوم. وجد عبوات ألوان بعضها مسكوب وجاف، وعبوات ناجية. جمعها ووضعها في أماكن متفرقة يعرف طريقها جيدًا ويُعلّمها بإشارات يستطيع الوصول إليها إذا ما تم تدمير المكان ثانية، وزعها على المدينة بحيث تكون قريبة منه أينما أراد أن يرسم.

يتخفى سكان المدينة في بقايا البيوت التي لم يطلها القصف بعد. لا أحد يعرف شكله، أو كم يستغرق من وقت في كل رسمة. كما لم يعثر عليه أحد من الجنود. لوحاته أثبتت أن الحرب ليست قاتلًا ومقتولًا فقط. أصبح هناك طرف ثالث في الحرب، يقصفون البيوت؛ فيقصف أفكارهم. يصبغون المدينة بالأحمر فيعيد تلوينها ببقية الألوان، يتحداهم بفرشاة وألوان أمام دانات مدافعهم. لو رأيت المدينة من أعلى، لعرفت أنها أصبحت رقعة شطرنج، مربعات رمادية قاتمة رسمتها يد معروفة، ومربعات ملونة رسمتها يد خفية.

المشتاق

سأخبرك ما لم تعرفه عني من قبل، أتوقع منك أن تساعدني يا صديقي في نشر هذه الرسالة، أنت استغاثتي الأخيرة وأملي الوحيد. عليك أن تقرأ هذه الكلمات كمن عثر على زجاجة آتية من عمق المحيط بها رسالة حملتها الأمواج، ربما يكون صاحبها غرق، وربما يكون في انتظار المساعدة.

لقد اخترتك تحديدًا لأني أعرفك جيدًا، وأعرف قلبك الطيب. التقينا مرّات من قبل، ولم أخبرك أبدًا بإعجابي بذكائك الحاد واجتهادك وأمانتك، ليس لديَّ شخص آخر يقوم بهذه المهمة غيرك، خاصة عندما علمت أنك تركت المهنة التي جمعتنا معًا، ولكني أعلم أن قصة مثل هذه قد تعود بك إلى صفوف المقدمة، كما كنت دومًا.

سأبدأ بما مضى..

في الصغر، كانت لديَّ أفكار غريبة أحتفظ بها مثلما تحتفظ الجدّات بصندوق عتيق في دولاب ملابسهن، به صور وخطابات غرامية عندما كانوا عشاقا، الفرق أن أفكاري أحتفظ بها من طفولتي، وأصدق بها تمامًا كلما كبرت، أدركت لاحقًا أن كل هذه الأفكار منصبّة حول قوة البشر، وقواهم الخفية.

مثلا، تخيلت أن مروحة السقف لا تعمل بالكهرباء، بل إن جيراننا في الطابق الأعلى يتفرغ منهم شخص ليلفها بيده طوال الوقت، وأن هناك أرنبًا ضخمًا وحيدًا وحزينًا يسكن القمر، لو دققت في الرسوم على سطح القمر في ليلة صافية لرأيته. أرنبًا جميلًا بفراء ناصع البياض، يقف أمام إناء يطبخ فيه جَزَر الأمنيات، وهو جزر برتقالي عادي من الذي تأكله الأرانب، لكنه مُحمّل بأمنيات البشر. وعندما ينتهي الأرنب من طهي الجزر، يرسله للعشاق المنتظرين آخر الليل ليحقق أمانيهم. لطالما انتظرت هذا الأرنب وناديته، وودت أن يلعب معي، أو أن أصعد للقمر وأساعده في الطهي وتحقيق أحلام البشر، ولكن جزرة أمنيتي لم تأت بعد.

فكّرت أن زميلتي في الفصل ذات العينين الخضراوين، ترى كل شيء أخضر، وذات العينين الزرقاوين ترى كل شيء أزرق، وعجبت حينها من لون عينيّ الأسود، الذي أرى به الأشياء ملونة وليست بلون واحد كما الأخريات. عاملتهن كما القطط، أو هكذا اعتقدت، أنهن يرون كل شيء كأفلام الكرتون المسطحة، ثنائية الأبعاد، وبلون واحد، وشعرت بالأسف لأنهن لا يعرفن جمال الكوكب.

أصدق في الأطباق الطائرة، والكائنات الفضائية، وبأن هناك مركبات تحلّق فوق رءوسنا تفتح أبوابها فجأة لتشفط شخصًا ما لأعلى. وأن القطط تتحول في الليل إلى كائنات مرعبة، وأن مواءها هو بكاء أطفال تحولوا إلى قطط عندما رأوها في الليل، لذلك كانت أمي تنصحني دائما بألا أهشّ قطة في الليل كي لا أُسخَط مثلها. وبأن هناك أناسًا سُخِطوا إلى حيوانات وكائنات، قد يكون نباتًا أو

شجرة أو طائرًا، لذا عليّ أن أحافظ على الروح بكل شكل كانت. كل الأشياء لها أرواح وأحاسيس، فالأرض بيضاوية داخلها عملاق محبوس، يبكي مطرًا، ويغضب براكين، ويفرح زرعًا وخيرًا. وكذلك القمر يخجل فيصبح هلالًا، والشمس تغضب ظهرًا، واحمرار السماء دمًا لحظة الغروب، متناثرًا من مقصلة ضخمة، تأخذ أرواحًا ترسلهم إلى العالم الآخر، مع موكب الشمس الراحلة.

لم أقتنع أنها صدفة أبدًا أن يعيش طائران أسودان في بيت رجل وامرأة عجوزين بالصدفة! بل إنهما يتصرفان كأنهما في نفس العمر، لا حركة ولا صوت. لقد رأيتهما بعيني، في الصباح يأكلان ما تضعه المرأة العجوز لهما، ويبقيان هكذا طوال اليوم، يقفان على سلك حديدي، كما تجلس العجوز وزوجها أمام التلفاز طوال اليوم.

حدثتُ الهدهد الذي وقف على حافة شُرفتي لسنوات، وظننت أنه هارب من عهد نبي الله سليمان، وأنه يستطيع أن ينقل إليّ الأخبار إذا تصادقنا، لكنه لم يمنحني الفرصة، فأكملت سعيي وراء الأخبار وصرت صحفية. وتابعت بشغف قصة الحب بين اليمامتين الجالستين في ركن الدرج، في مكان سِريّ أراه من شُرفتي. وعندما حكت لي صديقة قديمة أنها تخاطب النمل، وأمرت النمل أمامي أن يتحرك في اتجاه معاكس، صدقت أن النمل يسمع وينفذ ما تقوله، لكنها أفصحت عن سخريتها مني سريعًا، ولم أفهم لماذا سخرت رغم أن نبي الله كان يسمع النمل وهو بشر مثلنا.

لماذا أحكي لك هذا؟ لأني أصدق أن الحكايات والأساطير ليست من فراغ، ولأني أسعى وراء الدهشة حيث يغفل الناس عنها.

ولهذا، أريدك يا صديقي أن تصدقني عندما أقول لك إني أستمع إلى غناء في الليل، ولا أعرف مصدره، فهو ليس بصوت مسجّل أو آتٍ عن جهاز إلكتروني. أسمع صوتًا حنونًا وهادئًا، يغني كأنه سندباد محلقًا ووحيدًا في السماء بمفرده، يغني بكلمات غير مفهومة، أكاد أجنّ وألتقط واحدة منها، وغناؤه حزين للغاية، وبلا مصدر محدد، كأن السماء سمّاعات ضخمة تبث صوته عبر الكوكب.

تفقدت كل غرف المنزل، وسألت الجيران كلهم عما إذا كان أحد يغني في الليل أو يسمعون ما أسمع، ولم ألحّ في سؤالي عندما رأيت نظرات مرتابة في أعينهم. وأنا أمامهم صحفية شهيرة وكاتبة وصاحبة عقل رزين، تكتب مقالات هامة، وتظهر في التلفزيون، ويصدر لها كتب لا يشترونها ولكن تعطيها لهم أمي كهدية من باب التفاخر. ولكني، وأقسم لك، وقعت في غرام الصوت، لقد سيطر عليّ كنغمة لحوحة، ترن في دماغي، وصداها يذهب إلى جزء بعيد من ذاكرتي.

ذلك الصوت المبحوح بحة حزينة، ومؤلمة، ومليئة بالشجن، كبحة صوت العاشقين المشتاقين عندما يتهالكون بسبب قوة أشواقهم. لقد رأيت شابًّا عاشقًا من قبل وأعرف ما أتحدث عنه. هذا الوهن الذي يهز أوتار القلب مع هزة أحباله الصوتية، الضعف الذي لا تملك أمامه شيئًا. يكاد جماله يذهب بعقلي كما تذهب النداهة بعقول الفلاحين، عفوًا نسيت أن أخبرك أنني من محبي أسطورة النداهة، خاصة بعدما رأيت فلاحة مجذوبة ندهتها النداهة، وكانت تسير في الشوارع على غير هدى، ولكن بريق عينيها يحكي الكثير.

قد تقول أنت إنها سيدة مجنونة فقدت عقلها وهذا مرض، ولكني متأكدة أن الأمراض لا تأتي بكل هذا السحر، والشغف، والغواية التي تسلب العقل، وأنا يا صديقي كدت أن أفقد عقلي من حلاوة الصوت، وأردت أن أعرف مصدره.

أعترف أنه كان مزعجًا في البداية، ووددت التخلص منه لأنه يضعني في حالة حزينة تصل إلى حد البكاء الذي يلتهمني كما تفعل عجلات سيارة مسرعة مع أسفلت الطريق. ثم تلاه الغضب الذي أكل أعصابي. ولكن، ربما التأقلم، أو لمحة الشجن الناعمة في الصوت، أو أني لا أحتمل رؤية رَجُل كسره الحب، تلك التي جعلتني ليلة بعد ليلة، من دراويشه.

ولم يقتصر الأمر على الليل. صرت أسمعه في النهار، في العمل، في خلفية أي حديث مع أي شخص، كان صوته كموسيقى ناعمة تسمعها وقت الغروب وأنت ترتشف قهوة مُرة، هذا الحزن اللانهائي وقت رحيل الشمس، كأنها لن تعود ثانية. أسمع هذه الكلمات المبهمة، والموسيقى، والأنـات، كأنها وساوس، أو استغاثة آتية من بعيد جدًا. استعذت بالله منها مرارًا فلم تذهب، وقلت إنه ربما كان جنًا يداعبني، أو هاجسًا يؤرقني ولكن بلا فائدة. كان الصوت أجمل من أن يكون شيطانيًا، وكانت غوايته في براءته وصدقه، ومدى الحس المرهف الذي يطل من بين الكلمات غير المفهومة.

فكرت كثيرا في أن الأمر نغمة سمعتها في فيلم قديم، أو محض أسطورة من الأساطير التي أصدقها، هل هناك أساطير عن أشخاص

مبحوحة أصواتهم يغنون في الليل؟ لم تصل إلى معلوماتي حتى الآن. وربما تقول أنت إنها محض هلاوس سمعية مرتبطة بمرض نفسي، أو كما يقول علماء التخاطر إنها نوع من الاستقبال الفائق للأصوات، وإن صحّ ذلك فما تفسيرها وما أصلها؟ ولماذا يغني الصوت بكل هذا الحزن؟ ولماذا اختارني؟ لعلك تفهم الآن سبب وضعي لسمّاعات أذن طوال الوقت مؤخرًا، لم أرغب في سماع الناس، لا أريد أن يشوش أحد على ما ألتقطه.

زهدت الكلام، وأتقنت الردود المختصرة، لعلك جربت هذا عندما حاولت محادثتي أكثر من مرة. زحام الشوارع وأبواق السيارات والبائعين وكل هذا بات يصيبني بعصبية حادة، أضع سماعات طوال الوقت، ولا أستمع لأي شيء، أنتظر فقط أن تلتقط أذني هذا الصوت، كمن ينتظر جرعته المخدرة، لعله، في يوم ما، يتضح.

أهملت عملي، وعندما ساءت حالتي خلال ستة أشهر تركته، وبعدما كنت اسمًا يبشر بالخير في هذا الوسط تركته فجأة. قالوا إني فقدت عقلي من فرط العمل، وإن الحال وصل بي إلى ذلك لأني لا أسبح مع التيار. انقطعت عن الإنترنت، ومواقع التواصل الاجتماعي، وصرت مهووسة بهذا الصوت الآتي من حيث لا أدري.

انعزلت عن أسرتي وصرت أجلس في غرفتي لساعات طويلة ولا أخرج منها إلا لقضاء حاجة أو شرب الماء وتناول القليل من الطعام. ظنّ أهلي أن بي مرضًا، وجاءوا بطبيب للمنزل ليتفحص حالتي، بعدما أصبحت أقضي الليالي في الشرفة بلا نوم. قال لأهلي

إنني بخير، ولكنْ لدي سِرّ عظيم سيأخذ وقتًا قبل أن يذهب أثره. ثم انفرد بي وقال إن هناك غيومًا على عقلي، وإن شرودي المستمر يشير إلى أن هناك أمرًا عظيمًا يحتل تفكيري، وآلام عظامي من الجلوس لساعات طويلة في البرد. قال إنني أتآكل داخليًّا، وأن عليّ أخذ الدواء إذا كنت أريد الشفاء. كتب لي وصفة علاج عبارة عن منوم، وأدوية «للشعور بالبهجة»، وأسطوانات موسيقية لسليم سحاب!

ظن بي أهلي الظنون، من مشاكل بالعمل، لعلاقة فاشلة، لخسارة مال أو أصدقاء، أو الفشل، أو الإدمان. لكن لم تكن هناك أعراض لأي مما سبق. لذا تعاملوا معي كأني مصابة بمسّ شيطاني. قرأتْ أمي الكثير من الأذكار والأدعية والرقية الشرعية على رأسي، وكان صوت القرآن يملأ أركان بيتنا، وتذبح الذبائح وتذهب للمساجد. وكنت كما أنا، أقرأ الكتب، وأجلس في غرفتي جوار النافذة لأسمع الصوت، وأقضي الليل كله أحدق في النجوم، أنصت بكل حواسي حتى أغيب عن العالم، وعندما ألتقطه يختلج قلبي في صدري، وأشعر بقطرات الدموع تسيل على وجهي، وأجلس ساكنة كأن على رأسي الطير، كأنه سيختفي إذا تحركت.

لكي أصدقك القول، لم أرضَ عن نفسي تمامًا في هذه الحالة. لقد خسرت كل شيء من أجل ما لا أعرفه. كان غضبي مما يحدث مثل النار في قلبي، اشتعلت اشتعالًا رهيبًا أحرق دنياي، ثم انطفأت وماتت روحي معها. ولهذا، وهبْت حياتي لهذا الصوت، وعلمت أن الحال لن يكون أسوأ من ذلك، فلم يعد لديّ ما أخسره. وعاهدت نفسي أنه مهما طال بي العمر فسأكتشف مصدره، وإن كان الثمن

حياتي التي أفسدها. نذرت نفسي لكشف المجهول، وأحببت المعرفة والحقيقة حتى وإن كانت نهايتي على يدها.

شغلت الكمبيوتر فورًا، وغرقت في بحور الإنترنت، قرأت كل ما لديّ من كتب تتحدث عن الأساطير الرومانية والإغريقية والفرعونية والهندية والصينية. والقصص الشعبية التراثية في كل البلاد. غُصت في كل ما وقع تحت يدي، وبِتُّ أسهر الليالي بين الكتب والكمبيوتر، وفي النهار أجلس لساعات في وسط الغرفة بدلًا من جانبها، وأحاول تخيل مصدر الصوت، هل هو لرجل؟ لمراهق؟ لشاب محبوس؟ لمحارب؟ لمعتقل؟ أضع كل الاحتمالات وأركبها على نغمة الصوت وأرى إن كانت تليق أم لا، ولكن بلا نتيجة.

هل استسلمت يا صديقي؟ أبدًا والله، قررت البحث في الماضي. فتحت كل أرشيف عملي في الصحافة من أول تدريب وأول خطّ بالقلم، وحتى الكتابة والعمل في كبرى الجرائد والقنوات التلفزيونية، كل قصة ذكرها لي معلميَّ، كل مستشفى أو مدرسة أو شخص قابلته أو سألته عن رأيه في الشارع، كل مكالمة تلفونية لمصدر، وكل لقاء مع حارس عقار أو مع وزير. مرّت أمامي ملايين الصور، كنت راضية عن أغلبها، إلا واحدة، أتذكرها جيدًا وكنت أضعها في خططي المستقبلية أن أحاول فعل شيء مهما طال الوقت.

كنت في بداية مشواري الصحفي حينها، أدرس بالجامعة وأتدرب في إحدى الصحف، عندما زرت قرية في منطقة نائية للغاية. لم يكن

لها مواصلات إلا عربة نصف نقل، تمشي في طريق زراعي طويل، عن يمينه خضرة لا متناهية، وعن يساره قناة مائية صغيرة. أعطيت للسائق ١٠ جنيهات كانت نصف ما أملك حينها من مصروف جيبي، وطلبت منه أن يأخذني للقرية، فانطلق وسألني في الطريق عمن أكون، فأخبرته أني صحفية، وأني جئت لعمل موضوع يخدم أهل القرية الفقراء. وسألته عن اسمه ففكر قليلًا ثم قال: «تامر»، كان شابًّا نحيلًا شديد اسمرار البشرة، في جلباب أخضر باهت متسخ.

أخذني تامر إلى القرية، وبمجرد وصولنا وقف أمام أحد البيوت وطلب مني الانتظار. دخل وعاد بعد دقائق ومعه عباءة سوداء، وفردها أمامي وكانت مقطوعة من الظهر قطعًا صغيرًا. كنت أرتدي بنطلون جينز أزرق وبلوزة خضراء، فأعطاني العباءة وأخبرني أن كل بنات القرية يلبسن مثلها، وإذا خالفتهن في الملبس فلن يتحدث معي أحد، وقد لا أخرج بسلام، ففعلت ما طلبه.

مشينا في الشمس الحارقة بين البيوت الطينية، وكانت عكس ما تخيلت. فقيرة وميّتة، ليست بيوتًا ريفية جميلة كما ظننت ورأيت في أعمال درامية. الممرات الصغيرة بينها تكاد تكون خالية، لا أطفال يلعبون بها، ولا باعة، ولا رجال يجلسون ويشربون الشيشة على المصطبة، ولا نساء يبعن الخضراوات. دقّ تامر على أحد الأبواب وفتحت سيدة ترتدي جلبابًا كحليًّا مزركشًا بالأصفر، ومنديلًا ملونًا على رأسها. دعتنا للدخول فدخلنا، واستأذنتْ لعمل كوبين من الشاي، وتركت طفلًا صغيرًا يلعب بصحن بلاستيكي أمامنا، يسعل ويكح كل قليل.

لاحظ تامر نظرتي للطفل، فقال: «كل أطفال القرية يعانون من السرطان، والالتهاب الرئوي، وأمراض في الأمعاء والدم». سألته عن السبب، فدخلت السيدة تحمل صينية فضيّة صغيرة عليها كوبان من الشاي لونه أحمر باهت، وبجانبهما كوب به سائل أصفر، فسألتها عنه، فقالت «ماء». فاستغربت وسألتها عن لونه الغريب، فأوضحت أن كل أهل القرية يشربون هذا الماء الملوث لأنه لا يوجد غيره، وأنهم يشترونه بالجالون، لأنه لا توجد أنابيب توصل المياه للقرية، ولكن عربة تمر كل صباح فيأخذ كل بيت حسب حاجته.

أصابتني الصدمة بالخرس، واقترح تامر أن نذهب لمكان آخر، فمررنا أمام بيت صغير يدخله أناس كثيرون وتبدو فيه حركة غير طبيعية. قال إنه مصنع لإعادة تدوير القماش، القماش الذي يرميه «أولاد الذوات» من ملابس وأغطية وأثاث مستعمل، كله يأتي إلى هنا لإعادة تصنيعه وعمل سجاد ومنتجات أخرى. هناك قابلنا أحد معارف تامر، الذي حسب أني إحدى قريباته من قرية أخرى، ودعانا إلى حفل عقد قران إحدى بنات المصنع في المسجد، بعد صلاة العصر.

استكملنا جولتنا في القرية صامتَيْن، وسألت تامر عن الخرافات التي يصدق فيها أهل القرية. فقال بالطبع «النداهة»؛ فهي أسطورة ريفية أصيلة، وكذلك «خيال المآتة الخشبي» الذي يقف فاردًا ذراعيه بين الحقول، يصدقون أنه كان رجلًا من لحم ودم، ويعود إلى هيئته الأصلية في المساء. أما الأسطورة المرتبطة أكثر بالقرية فهم يرون أشباحا يشبهون أهل القرية الذين غادروها لأسباب كثيرة، يجلسون

على شاطئ الترعة أو يتجولون في الحقول، ويعتقدون أنهم كانوا واقعين في حب بنات ولم يستطيعوا الزواج بهن، فتحولوا إلى أشباح. ولكل حبيبة شبح يغني لها أغنيتها.

واستكمل: «البنات هنا إن كان حظها جيدًا يتزوجن أصحاب المصانع وأبناءهن، أو يوردوهن لخارج القرية للعمل كخادمات، أما سيئات الحظ فيتزوجن خريجي السجون والهاربين منها. نسيت أن أخبركِ أن المنطقة مليئة بهم، كونها بعيدة عن الأنظار».

حضرنا مراسم عقد القران بعد الصلاة، ورأيت العروس النحيلة ترتدي فستانًا ورديًّا واسعًا ومتهدل الكُمّين، تساقطت منه اللآلئ والزركشات وبقي منها القليل. قماشة بيضاء مخملية تغطي رأسها ووجهها، يظهر من تحتها أثر لأحمر شفاه ثقيل، وعندما كشفت وجهها بعد عقد القران، ظهر الكحل الأسود القويّ حول عينين لا حياة فيهما. وسط تصفيق أهلها وصديقاتها، سمعت صوت نغم حزين فاستغربته، وخرجت لأرى ما يحدث.

كان أمام المسجد ترعة ضيقة يجلس على حافتها صاحب الصوت ومعه ناي، قال لي تامر إنه حبيب هذه الفتاة منذ أعوام، لكنه ككل شباب القرية، فقير ومريض بالسرطان، واحتمالية حياته وتحسن ظروف حياته ضئيلة للغاية. اعتاد أهل القرية على ذلك، مع كل زواج لفتاة يجلس حبيبها خارج الفرح، يبكيها، وينشد فيها أغاني فلكلورية من أغانيهم، ويعزف لها لحنًا على الناي. يقولون إن النغمة التي يعزفها تحمي الحبيبة أينما ذهبت. أما العازف فيُترك هكذا، إما يتآكل بالنسيان وإما يأكله، أو يغادر القرية بلا رجعة.

اقتربت من الشاب وربتّ على كتفه، فنظر إليَّ بعينين دامعتين، وسأل تامر عني، فقال له إني ضيفة من ضيوف القرية وإني أعمل صحفية، فهبّ من مكانه وأمسك ذراعي وقال: «ساعديني.. أرجوكِ». فسألته: «كيف؟»، قال: «أريد فرصة عمل.. أريد إنقاذها، أريد أن أدخل مستشفى وأتعالج ليرضى بي أهل حبيبتي، أرجوكِ، سأكون خادمكِ طوال العمر، سأفعل أي شيء تريدين، لا تتركيها تتزوج، أرجوكِ». «لكنها تتزوج الآن بالفعل!» قلت، فأخبرني أنه لا يزال هناك وقت حتى موعد الزفاف، وأنه يمكنني مساعدته. وعدته بالمحاولة وأعطيته رقم هاتفي، فقال إنه لا يمتلك هاتفًا ولا يوجد إلا تليفون واحد في القرية كلها، وإنني إذا كنت جادة في مساعدته فعليّ أن أعود للقرية قبل شهر.

عُدت مع تامر عبر السيارة نصف النقل، وكنت أحدق في قناة المياه والطريق الزراعي فسألني عما أفكر فيه. فقلت إني أفكر في طريقة لمساعدة أهل القرية من كل شيء. فضحك وقال: «أتعلمين، لستِ أول صحفية تزور المكان، لقد زار المكان كُثُر من قبل، وما أنتِ فيه هو صدمة الزيارة الأولى فقط، ولكن، بمجرد عودتكِ لبيتكِ وحياتكِ، سيزول كل شيء»، فقلت بسرعة: «لا.. لن أنسى»، فضحك وقال: «ستفعلين». فصمت حتى وصلنا ونزلت من السيارة وأعطيته الجنيهات العشرة الباقية في جيبي، فرفضها بأدب، واستأذن ومشى.

انتبهت لقطرات باردة تسقط على يدي، هذه دموع أليس كذلك؟ مسحت وجهي لأتأكد وقفزت من مكاني لأنظر في المرآة، احمرار عيني يشير إلى أنني بكيت كثيرًا. تذكرت هذه الواقعة وأنا جالسة في

غرفتي أحاول جذب أي ذكرى من الماضي تفسر لي هذا الصوت، لقد كان صوت الشاب العاشق، الذي وعدته بالمساعدة، كان هذا صوته وهو جالس على حافة الماء ينتظر أي أمل، لقد كنت الأمل بالنسبة له في لحظة، وخذلته دون أن أدرك فداحة ما فعلت. سلّمت الموضوع للجريدة وكنت في غاية التأثر، وفي اليوم التالي ذهبت للجريدة وأول ما دخلت سألت السكرتير عن عدد اليوم، فأعطاني إياه وبحثت فيه بسرعة عن موضوعي، ووجدته في الصفحة السادسة، ولكنه كان دون اسم، وكان عكس ما كتبته تمامًا، كان موضوعًا عن قرية نموذجية ريفية تعيش في سلام وهدوء، بعيدًا عن صخب العاصمة، مرفقا به تفاصيل كاذبة عن الصحة وسعادة أهل القرية وتأمينها. فغضبت ودخلت لرئيس التحرير ورميت الصحيفة في وجهه، وكدت أصفعه، صرخت فيه من غيظي وغضبي، وبكائي الذي قطّع كلماتي إلى أشلاء غير مفهومة، كنت أبكي تامر وقريته، أبكي مرضى أصبح خطّ الفقر لهم حلمًا. ردّ رئيس التحرير باقتضاب أن هذا الموضوع سيُغضب «النظام»، وأن غضبي أنا أهون بالطبع، وعليّ أن أختار الموضوعات «بعناية» كي لا أخسر عملي. مزقت أوراق الجريدة، ونثرتها في الهواء، وما سقط منها على الأرض دُسته بقدمي، وخرجت وسط الزملاء الذين سمعوا الصوت فجاءوا ليشاهدوا عن قرب.

كنت ما زلت طالبة بالجامعة، شغلني بعدها البحث عن عمل أو تدريب، والمذاكرة والامتحانات. أردت أن أثبت لنفسي أن هناك مجالًا لقول الحق في هذه المهنة، غيّبتني الدنيا وأحلامي، ولم أتذكر قرية المشتاقين إلا اليوم. وأدركت أن ما حصل لي في

الشهور الأخيرة هو ذنب خذلان العاشق الذي استغاث بي، والذي لا أعرف مصيره الآن، ولا أعرف اسمه، ولا أعرف كيف أصل إليه وإلى تامر بعد عشر سنوات.

خرجت بعدها لأول مرة منذ شهور من البيت، أحسست بجسمي وعظامي تتفكك في الشمس، وأن الدماء عادت تتدفق داخلي، ذهبت إلى البنك وسحبت كل المال الذي جمعته خلال سنوات. وذهبت لإحدى الجمعيات الخيرية وطلبت منها أن تساهم في توصيل المياه النظيفة إلى هذه القرية. وما تبقى من المال تبرعت به لعلاج مرضى السرطان. قد تظن أن هذا كافٍ، ولكنني كنت أفكر في نفسي أكثر مما فكرت في القرية. وددت التطهر من إثم النسيان بكل ما أملك وما أستطيع.

بعد أسبوعين، استجمعت شجاعتي وذهبت للقرية مع أعضاء الجمعية الخيرية لتوصيل المياه. ذهبت مرتدية عباءة كما جئت أول مرة، وعندما وصلت وجدت القرية قد ازدادت فقرًا وموتًا، صحيح أنه دخلتْ بعض الهواتف النقالة وأطباق استقبال البث على أسطح البيوت، لكن الأهالي ما زالوا مرضى. لو رأيتهم لحسبتهم «زومبي» يطوفون بالشوارع. جلودهم ملتصقة بعظامهم، خيالات هزيلة تطوف الشوارع، لا تفرقها عن بعضها البعض إلا بألوان ملابسهم الباهتة. قادتني خطواتي إلى قناة المياه الملوثة أمام المسجد. كان المكان خاليًا، والقناة تكاد أن تجف، جلست مكان الشاب الذي رأيته قبل أعوام، أفكر فيما جرى له، وهل تحوّل إلى شبح يغني لحبيبته المفقودة؟ وهل ظهر لي تحديدا لكي أساعده في استعادتها،

أم لنسيانها، أم ليؤنبني على ما مضى كأنه ضميري. ولوهلة شعرت بأن صوت الشاب قد يكون صوت ضميري؟! فكرت وأنا أنظر لمياه القناة الخضراء التي اكتسبت لون الأشجار المحيطة بها، في أن الأغنية الجميلة الحزينة؛ باتت صديقتي ومرآتي.

كتبت لك يا صديقي، وأنا أعلم أنك تركت المهنة المتعبة، ولكن أحببت أن أعرفكما على بعضكما البعض. أردت أن أريك ما فعله بي جزء من ذاكرتي. أنت صحفي ممتاز وتستطيع أن تخدم العالم بعملك، وأن تنقذ الكثيرين من هذا المصير. على العالم أن يكون رحيمًا بالعشاق. أريدك أن تدق الأجراس قبل أن يُدهس آلاف المساكين، كي لا يتحولوا إلى أشباح حزينة تتجول في الليل وتغني على ناي. أتمنى يا صديقي أن يصلك الصوت، وأن تكتب عنه، وأن تقع في غرامه مثلما فعلت، ولكن لا تضيّعه ولا يضيّعك. ربما تربت أفعالنا على كتف صاحب الناي الحزين وأمثاله، أينما كانوا.

تفاحة ـ فاسدة

في دقائق معدودة انقلبت مواقع التواصل الاجتماعي، انتشر الخبر على مواقع أكبر الصحف العالمية. شهق المصريون وحبسوا أنفاسهم. الهواء مليء بالترقب، الكل يتشمم ويلتقط الأخبار والمعلومات المتطايرة، سواء كانت حقيقية أم لا، الكل يريد أن يعرف حقيقة الأمر.

قبل لحظات انتشر مقطع فيديو من أمام الهرم الأكبر «خوفو» بمنطقة الأهرامات بالجيزة، يُظهر امرأة شابة تقف أمام مدخل الهرم، تلف حول خصرها حزامًا عريضًا وتحمل حقيبة سوداء، وتهدد كل من يقترب منها بالتفجير. ابتعد السياح وزوار المكان على الفور، واستغرق الوقت بضع دقائق حتى يصعد رجال الأمن على الصخور للوصول لبوابة الهرم التي تقع على ارتفاع أمتار من الأرض، في هذه الدقائق كانت المرأة قد اختفت داخل الهرم وتركت خلفها سكونًا مرعبًا.

تحرك وزير السياحة على الفور لمكان الحدث، وتابعت السلطات الأمر، وحدقت عيون العالم بالهرم. الكل ينتظر ما سيحدث لواحدة من عجائب الدنيا السبع، وأحد أشهر رموز الحضارة على مر العصور. وهذه الإرهابية المجنونة التي تنوي تفجير الهرم الأكبر.

امتلأ محيط الأهرامات بقوات الأمن، ومكبرات صوت وأجهزة تتبع وخبراء مفرقعات وكلاب بوليسية، تم تشديد الحراسة على المداخل والمخارج وإخلاء المنطقة من السياح. استعانوا بأثريين لكي يستطيعوا تحديد الأماكن التي يمكنها الاختباء فيها بالداخل. استغرق الأمر بعض الوقت حتى يأتي الخبراء ومعهم خرائط توضيحية لأجهزة الأمن.

في نفس الوقت، كانت المرأة المجهولة بالداخل، تتحسس طريقها الذي عرفته من زيارات سابقة، تحني رأسها للملك الراقد منذ عصور، تؤكد أنها لن تؤذيه، وأن خطتها تسير على نحو جيد حتى الآن.

بث وسائل الإعلام الكثير من الأخبار: «إرهابية داخل الهرم»، و«مجنونة تهدد الملك خوفو»، و«حزام متفجرات قد ينسف التاريخ»، عناوين لا تحتاج للتوابل لأن الحدث يكفي. وانتشرت الصور التي تظهر فيها امرأة سمراء بشعر أسود مضفر من الجانبين، متوسطة الطول، ترتدي سترة وبنطلونا باللون الأسود وحزامًا أحمر عريضًا على خصرها به ثنيات مستديرة، كأن كُريّات صغيرة بداخله.

في الداخل كانت هي بمفردها، في المكان الذي درسته جيدًا لتنفيذ خطتها، تحمل أجهزة البث التي ستجذب إليها أنظار العالم، ستلقي رسالة هامة من أغرب مكان على سطح الأرض. حضرت الكاميرا وجهاز الإرسال المرتبط بالقمر الصناعي. وفي دقائق كانت قنوات التلفزيون تقسم شاشتها ٤ مربعات: مربع للمجنونة داخل الهرم، وثانٍ لقوات الأمن، وثالث للخبراء في الاستديوهات، والأخير به صورة علوية لما يدور بمنطقة الهرم.

بدأت البث: «مرحبًا، أنا لست إرهابية كما قالت وسائل الإعلام، أنا امرأة عادية اكتشفت سرًّا جديدًا عن الأهرامات، وأريد كشفه للعالم.

قبل أن أقوله لكم، سأحكي لكم قصة متعلقة بما يحدث هنا، الموضوع كله متعلق بالتاريخ والقصص، وأنا أحب كليهما. أصدقائي يقولون إنني أحكي قصصًا غير قابلة للتصديق، وأعرف أنها طريقة مهذبة لقول إن قصصي سيئة. ولكنكم اليوم مجبرون على سماع إحداها. لذا سنبدأ بتاريخ قريب بدأ منذ سنوات. عندما كنت صغيرة، كان لدينا أقارب يزورون منزلنا لأول مرة بعد عودتنا من السفر. كنت قد ولدت بالخارج، وهذه زيارتي الأولى للوطن والبيت، وعندما رأوني جوار أمي البيضاء، قالوا لها: «ابنتكِ سمراء، وذات عينين واسعتين».

نظرتُ إليهم، حدقت في وجوههم، كانت من بينهم امرأة سمراء وسمينة تتصبب عرقًا، إلى جوارها رجل أسمر بشارب كثيف ونظارة زجاجية مكعبة بعدسة حلزونية، لا أعرف كيف رآني من خلفها، ولا أعرف سبب قولهم ذلك. كما لم أفهم معنى الجملة، هل هي مدح يجب أن أقول «شكرًا» كأي طفلة مهذبة، أم ذمّ يستوجب عقاب أمي بعد رحيلهم؟

كنا عائدين للتو من سفر طويل، وكان بيتنا يستعد كمزار لكل الأقارب والجيران الذين التقيتهم جميعًا لأول مرة. كنت أرتدي فستانًا أحمر منقطًا بالأبيض، وفي شعري الأسود شريطة بيضاء، وفي قدمي حذاء أبيض لامعًا. لا أتذكر عمري بالتحديد، ولكنه لم يتجاوز أصابع اليدين معًا.

كان هذا أول اختلاطنا بالمجتمع الذي عشنا في الخارج معزولين عنه. في الزيارات التالية، سمعت الجملة السابقة كثيرًا. وكنت ألحظ تغيّر وجه أمي بعد كل مرة يقولون فيها إن ابنتها سمراء وبعينين واسعتين. كانت أمي حريصة على مظهري، تشتري لي فساتين جميلة، وتمشط لي شعري ٥ أو ٦ مرات يوميًا، وتشدّه بقوة ليبدو ناعمًا، ولكنه يعصاها في كل مرة.

كرهت الزيارات بسبب ما يحدث بعدها. قصّت أمي شعري مرة، واستخدمت المكواة الساخنة مرة أخرى ليصبح شعري ناعمًا مثل أطفال التلفزيون. وأحرقتني في جبهتي إحدى المرات. انظروا هذه هي (تقرب وجهها من الكاميرا وتظهر حفرة صغيرة في جبينها فوق حاجبها الأيسر). استعانت بالزيوت والدهانات. جرجرتني لمصففي الشعر وللجارات. تسأل كل مَن تقابله عن طريقة لتنعيم شعري للأبد أو تفتيح لون بشرتي. كنت فأرًا للتجارب والوصفات المتداولة، حتى إنها في مرة صحبتني إلى جارة إفريقية، فقامت الجارة بتصفيف شعري بشكل ضفائر حلزونية كما تفعل لابنتها، فأصبحتُ أشبه بنات الجارة أكثر من إخوتي ذوي البشرة الفاتحة، ففكّت شعري بسرعة وأغرقته بالمياه.

لديّ شقيقتان أكبر مني عمرًا، وأوفر حظًا. كانت أمي تتفاخر بهما كلما جاء إلينا ضيوف. وأحيانًا تطلب مني ألا أخرج من غرفتي إذا ما جاء أحد لزيارتنا. مع الوقت، صرت أختبئ في غرفتي كلما جاء زائر، أستمع إلى حديثهم من وراء الباب، وكلما أردت الخروج من الغرفة، تلقيت وابلًا من السخرية: «ما هذا الكائن الأسود الصغير؟ لماذا تتركين شعرها بهذه الطريقة؟ يا إلهي.. إن عينيها سوداوان

وواسعتان!»، فأهرول نحو غرفتي مرة أخرى، وأسمع تبرير أمي التي تحاول امتصاص الحرج بأني «ألعب في الشمس كثيرًا».

كانت جدتي العجوز تزورنا باستمرار، وهي امرأة سمراء تملأ التجاعيد وجهها، تضع حجابًا مزركشًا حول شعرها وتفلت منه شعيرات بيضاء منطلقة يمينًا ويسارًا. وكانت تسلم علينا، إخوتي ثم أنا بالتدريج. وتدس في أيدينا قِطع الحلوى. وكنت دائمًا ما أسمع التوبيخ الممزوج بالسكر. أشياء مثل: «خذي هذه الحلوى أيتها العفريتة السمراء». كان جلوسي معها مرعبًا لأنها تحدق فيّ، تمص شفتيها في استغراب، وتشدني من شعري وتؤلمني. صرت أخاف أن تتركني أمي بمفردي معها، لذلك عندما تذهب لتحضير الطعام، كنت أتبعها وأقف إلى جوار باب المطبخ، في ممر مظلم ببيتنا، فقط أنتظر. وبالتدريج، أصبحت أرفض الحلوى وأرميها، وكانت جدتي تقول: «سمراء، شعرها خشن، عيناها مثل البقر.. وقليلة الأدب أيضًا».

في مرة من المرّات، كانت جدتي تقول لأمي جملتها المعتادة، فسمعتها والغيظ في داخلي، ظللت في غرفتي طوال اليوم أبكي على سريري. وكلما دخلت أمي لتوقظني مثّلت النوم، حتى غادرت جدتي. حينها ذهبت للدولاب وفتحت درج الخيوط والأزرار، أحضرت لفافة خيط وإبرة كبيرة، وطلبت من أمي تضييق عيني، حتى لا يسخر مني أحد، وأن تصب الكلور على جسدي وتضعني في الغسالة، لكي يبيض جسدي مثل الملابس.

(تمسك بحامل الكاميرا وتقربها من وجهها وتقول:) أعرف ما تفكرون فيه، مجنونة تفكر في تفجير الهرم للانتقام من أمها، لديها

عقدة طفولة، ربما هذا ما تقوله وسائل الإعلام الآن، ولكن دعوني أكمل الحكاية.

في فترات جلوسي الطويلة بين ألعابي، كنت ألاحظ أن مثل هذه الأشياء لا تحدث مع شقيقاتي، فهنّ بالتأكيد محظوظات. ذوات بشرة فاتحة، شعر ناعم، وعيون جميلة. كانت أمي تشتري لهن الفساتين أيضًا، لكن مع الوقت، أصبحت فساتيني هي ما ارتدينه قبلي. كنت أسأل نفسي: لماذا لم تبذل أمي مجهودًا أكبر لتُنجبني كطفلة جميلة، بعينين ملونتين وبشرة فاتحة وشعر كالحرير؟ أليس هذا خطأها؟ لماذا أدفع الثمن أنا؟

دخلت المدرسة وتفوقت، أحببت الأنشطة اليدوية أكثر من حفظ الكتب ونسخها في ورقة الامتحان. لذلك انضممت لفريقَي الرسم والزراعة، وكان المشرف عليهما نفس المعلم. لذلك أحببت هذه الحصص. كنا نرسم ونلون، ثم نذهب للحديقة الصغيرة بالمدرسة نزرع البطاطس والجزر والليمون. وكنت متفوقة في الاثنين، ففي الرسم أثنى الجميع على موهبتي. وشاركت في مسابقات باسم المدرسة وربحت الجوائز. وفي الزراعة كنت أهتم بنباتاتي، أرشها بالماء وأنظف تربتها جيدًا، فتثمر قوية وطازجة. أخذتها للبيت لأمي لتطهوها مع طعام الغذاء، وكان يملؤني الشعور بالفخر ويدي يملؤها طين الأرض، بعدما جنيت ما زرعته بيدي، إنه واحد من أعظم الأحاسيس، لولا أن أمي أفسدته لأني عدت للمنزل بملابس متسخة بالألوان والطين، ولكن هذا ليس سبب غضبها الوحيد. لاحظت أمي أن يديَّ كبيرتان.. انظروا (تقرب يديها من الكاميرا). وأن كف يدي أكبر من عمري، وأن المشكلة ليست هذه فقط، بل

قالت لي: «يداكِ كبيرتان، مثل أيدي الرجال.. كفوف البنات لا تكون هكذا، لن تَجدي من يضع بهما خاتم الزواج أبدًا».

لم أعرف ما أفعل، هل أقوم بتصغير يديّ؟ هل أذهب وأبتاع زوجين آخرين غيرهما؟ هل أقصهما بالمقص؟ كانت أمي تطلب أشياء غريبة ليس بوسعي تغييرها، وكانت تعاقبني على ذلك. كما أني في مراهقتي، لم أكن أفهم تحديدًا ما معنى «يد رجل، ويد فتاة»، أليست كلها أيادي من خمس أصابع؟ بل بالعكس، كان لمعلم الزراعة والرسم يد أضخم من يدي، وكان ظاهرها مملوء بالشعر الأسود الكثيف. كنت أحب يديه وأدقق في كيفية تحريكه للأشياء، وأشعر بأنهما يصنعان كل هذا الفن والحياة.

في مساء نفس اليوم الذي اكتشفت فيه كِبر كف يديّ، جاءت إليّ بعلبة مساحيق التجميل، وبمكواة جديدة للشعر، وقالت: «استخدمي ذلك» وذهبتْ، لم تخبرني كيف أستخدمها. لم نكن في عصر الإنترنت والهواتف الذكية، وكانت هذه الأشياء للنساء فقط وفق منظوري أنا وصديقات المدرسة، وأنا مازلت مراهقة خجولة لا أجرؤ على سؤال أحد. ولكني سألت نفسي: إذا كان شعري سأكويه، ولون وجهي سأخفيه بمسحوق أبيض، وعيناي سأحيطهما بالكحل. ماذا سأفعل بيدي؟ هل سأرتدي قفازات طوال الوقت؟! وماذا سأفعل ببقية جسدي؟!

دخلت على أمي مرة وهي تشاهد التلفاز وتلتقط تفاحة من طبق مليء أمامها، حاولت فتح حديث معها، سألتها عن سبب تأنيبي ومعاملتي بهذه الطريقة، قضمت من التفاحة، وقالت: «إذا كان لدى بائع ٣ تفاحات يريد بيعها بالسوق، وبينها واحدة فاسدة،

فإن عليه إخفاء عيوبها حتى تجد مشتريًا». رددت غاضبة: «أنا لست تفاحة فاسدة! وأنتِ بائعة غشاشة!»، صفعتني، فهرولت إلى غرفتي، أغلقت الباب خلفي بقوة فزلزل المنزل، وتزلزل كياني. هل كان تشبيهها لي بالتفاحة الفاسدة قصدًا أم صدفة؟ لقد دمرت رمز الإغواء في مخيلتي، أصبحت لا أرى إلا آدم وتفاحة معطوبة، لا هي تمنحه الدنيا وما فيها، ولا تركته في الجنة. شعرت بأنني مسخ، وبأني أحمل ذنب إخراج البشرية من النعيم على كاهلي، دون أن أفهم ذنبي في أن أُخلق تفاحة، كرهتها كرهًا عميقًا بعد هذا اليوم«Top of Form».

(كانت المرأة تتكلم بدون أي إشارة تساعد قوات الأمن على التعرف على هويتها، تمسك صورًا لها في مراحل عمرية مختلفة، وتقربها من الكاميرا وهي تحكي. قربت صورة لها تبدو في الخامسة عشرة ترتدي فستانًا رماديًا وتربط شعرها وتحمل حقيبة مدرسية، وقالت:) بدأت البنات في المدرسة يتهامسن حول شيء ما، عرفت لاحقًا أنه علامة البلوغ. وكانت هذه أول مرة أعرف بوجود هذا الشيء، أخبروني أنه نزيف قوي، وأنه دليل كونكِ امرأة، وأنكِ بدونه مشكوك في جنسكِ.

صِرت أترقب هذا النزيف، وطال انتظاري بضعة أشهر. قلقتْ أمي، فتشتْ ملابسي الداخلية، كشفت على عذريتي، استجوبتني لتتأكد أن أحدًا لم يمسسني. مارستْ إرهابًا عليّ في الدخول والخروج. وذكرت الأمر أمام نساء العائلة وهي حزينة ويملؤها القهر. كنت أختبئ في غرفتي وأبكي. وفي إحدى مرات بكائي شعرت بهذا النزيف، كنت أتلوى من الألم، حملت منديلًا ورقيًا

مصبوغًا بدليل براءتي، تساقطت قطرات حمراء على الأرض من بين قدميّ وأنا أقف أمامها، نظرت إليّ وقالت: «حسنًا.. نظفي هذا»، وكأن شيئًا لم يكن.

انتقلت من المدرسة للجامعة، كبرت وكبر الغضب معي. كلما سمعت جملة استفزتني كسرت شيئًا. كسرت مئات الأقلام، وحطمت أطباق ونوافذ المنزل، أحببت القراءة كي لا أسمع لهم. في الخارج كان الأمر مختلفًا، سمعت الثناء والمدح من رفاق الجامعة. كنت أسهر ليلًا أتأمل وجهي بالمرآة. ما الخطأ الذي تراه أمي ولا أراه؟ ملامحي تشبهني، تشبه شخصيتي الغاضبة المتمردة، يدي تناسبني تمامًا، كأني خُلقت تماما كما أردت. كنت أحدق بي فأرى شخصًا طيب القلب، هادئ الملامح، وفي الحقيقة لم أكن أريد أكثر من ذلك. لكنه لا يكفي أمي، هي تريد فتاة إعلانات، امرأة على غلاف مجلة، شعرها مضبوط بالمسطرة، وبشرتها حريرية شاهقة البياض، على الرغم من أن أمي نفسها ـ رغم كونها بيضاء ـ لم تكن بهذه السنتيمترية. كانت عادية، ممتلئة، بشعر خفيف مصبوغ بالأصفر الباهت، وعينين ضيقتين جدًّا، وملابس مبهرجة بالألوان.

سافرت بعد تخرجي من الجامعة مباشرة. عملت بعدة مهن، غسلت الأطباق، وأدخلت البيانات، مسحت النوافذ، بِعت التحف والتذكارات الفرعونية. الْتهمت الكتب وخاصة التاريخ، التقيت أنواعًا من البشر، بشعور شقراء وبنية وسوداء وفضية. وببشرة شاهقة كالثلج أو قاتمة كالليل. رأيت أيادي صغيرة وكبيرة ومجعدة، وعيون شديدة الضيق وأخرى أكبر وأوسع. وكنت أود أن أسأل كل مَن التقيت بهم عن الجمال الذي يجدونه في أنفسهم، ولكني لم أفعل،

كانت أمي تقف هناك دائمًا، بيني وبين أي شيء جميل أراه في نفسي أو في الآخرين. كان قلبي مكسورًا من العالم الذي عرفته، عرفت أن أمي محض نموذج لملايين البشر. رفضوني في مقابلة عمل بسبب لون بشرتي. واعتذرتْ لي منظمة أوربية بسبب أصولي الإفريقية. ورفض العمل معي زملاء بسبب ديانتي الإسلامية. لم أعرف حينها، هل أشكر أمي على تربيتي العنصرية التي مهدت لي سوء العالم؟ أم أكرهها لأنها لم تحبني بما فيه الكفاية؟

(كانت تنظر للكاميرا مباشرة وتوجه سؤالها للمشاهدين، وتحدق بهم. بينما ينظر العالم كله إلى هذه القصة التي لا يعرف أحد نهايتها. إلا أن مشاعر الغضب التي انتابتهم حول هذه المجنونة تحولت إلى شفقة بعد رؤيتهم للدموع في عينيها).

(صمتت قليلًا وقالت:) تتساءلون ما الذي أفعله هنا بالهرم؟ سأخبركم. وأنا بالخارج عملت في شركة سياحة، وعُدت إلى مصر وزُرت الأهرامات أكثر من مرة في رحلات سياحية، ودخلت الهرم الأكبر أكثر من مرة، وشعرت براحة غريبة، كأني وجدت حجرًا مفقودًا يتمم جدار روحي. كأني أزور معبدًا أو مُصلًى. قرأت عن أسراره، مداخله ومخارجه. وجذبتني معلومة عن هذا البناء الضخم، أنك إذا قطعت تفاحة ووضعتها داخله، فإنها لا تعطب ولا تفسد، ولا يعرف أحد ما هو سر ذلك حتى الآن، ولكني عرفت؛ ولذلك كررت الزيارة مرات ومرات.

كلما جئت إلى هنا، ضايقني الباعة الجائلون. نظرًا لأني لست سائحة شقراء، ولأني ابنة البلد على أي حال، ولذلك فلا مصلحة لهم من ورائي، وهذا مفهوم، لكن الذي لم أفهمه أن أفكر في ركوب

حصان بالأهرامات، فيصحبني شاب للمشي بالحصان داخل الصحراء، وهناك يتحرش بي ثم يبصق في وجهي. قال: «سوداء حقيرة»، سرق مالي، وأذلني، وأهانني. ضربني وتركني في قلب الصحراء، ممزقة الملابس والروح. عدت زاحفة، الشمس تكويني، وكرامتي تحرقني. لقد نزع هذا الشاب آخر شعرة من الصبر لديّ.. لم أكن لأتحمل أكثر.

(مع الجملة الأخيرة، أصاب الخرس المذيعين في الاستديوهات التي تحلل خطاب المرأة. قوات الأمن مازالت تفتش عنها داخل المنطقة، والكاميرا مثبتة على وجهها الجامد).

(تابعت:) حاولت الانتحار ولسبب ما لم أمت. لكني اكتشفت أن الدائرة أوسع من أمي. لم أكن محظوظة لأنتمي لنسب عريق أو أسرة أجنبية أو حاكمة. شعرت بأني عارية في عالم يرتدي فيه الناس ملايين الطبقات التي تحميهم من كراهية البعض. وسهام حقدهم رشقت في جسدي. وكنت أسأل الله كثيرًا، لماذا خلقتني هكذا؟ لماذا جمعت فيّ كل الصفات السيئة؟ هل أحتاج للحظ أم لدهانات تفتيح البشرة؟ هل أحتاج جنسية أخرى أم قفازات لِيَدي؟ لماذا لا يوجد مَن يحبني كما أنا؟ لماذا لا يرحمني العالم؟! كانت أمي امرأة بيضاء، لكن قلبها لم يكن أبدًا كوجهها.

(نظرت للكاميرا مباشرة) جئت إلى هنا لأن الأسطورة تقول: إن الهرم يحمي التفاح من التعفن. وهذا هو السر. هذه الحضارة لم تكن لتبقى كل هذا الوقت لولا احترامها للإنسان في كل صوره. لولا تقديرها للروح وهشاشتها، كما قلب التفاحة الأبيض، بغض

النظر عن لون قشرتها. جئت إلى هنا لأحتمي ولأختبئ من عطب روحكم، ولأنقذ ما تبقى من روحي من العفن، العفن الحقيقي في عقولكم.. هذا هو الإرهاب!».

قالت ذلك وأغلقت الكاميرا، وجمعت المعدات في حقيبة وتأكدت من الحزام على خصرها. خرجت بخفة من ممر سِري داخل الهرم، تتحسس طريقها بلمس الجدران الملساء، والأخرى المنقوشة. كانت تسمع خطوات رجال الأمن في الممرات المجاورة. وبعد وقت من اختفائها، وانقطاع الصورة عن التلفاز، ظهرت مرة أخرى عند باب الهرم.

أشهر العساكر والضباط أسلحتهم. وفريق المظلات يستعد للقفز من المروحيات. وعشرات من كاميرات التلفزيون وعربات البث. لكنها على الفور تحسست الحزام. وعبر مكبر للصوت خاطبها أحد الضباط، وعدها بالقبض على المجرم الذي هتك عرضها، وبأنها إذا سلمت نفسها فسيتم تخفيف العقوبة. ضحكت كثيرًا، وقالت: «امسكوا هذه أولًا».

انتزعت الكرات من الحزام، وقذفتها واحدة تلو الأخرى نحوهم. الكاميرات تلتقط كل ثانية، والعالم ينتظر تفجيرًا ضخمًا. ابتعد الضباط والموجودون بسرعة عن جهة رميها. ووضع البعض أيديهم على آذانهم، وانبطح الآخرون أرضًا، ولكن شيئًا لم ينفجر. مرّت ثوان، وهي تضحك بأعلى صوت، والكل مترقب. اقترب أحد خبراء المفرقعات وفتح اللفافة المغلفة بالقماش الداكن، وفوجئ مما رآه، لم يكن بداخلها إلا تفاحة فاسدة، وكذلك اللفافات الأخرى.

كان العالم كله مذهولًا مما رأى. حتى والضباط يقيدونها ويسحبونها نحو عربة الترحيل للسجن، ظل الجميع يحدق كأنه ختام فيلم سينمائي وليس شريطًا إخباريًا. ابتسمت ولوّحت للكاميرات قبل أن تختفي.

كانت تعرف أنها ستواجه هذا المصير. لكنها لم تكن تعلم أن الأمور ستتحرك بهذه السرعة. فقد انتشر وسم #تفاحة ـ فاسدة عبر كل مواقع التواصل الاجتماعي، اعتبرها الناس بطلة، ورووا قصصهم وما قابلوه من عنصرية. ووصلها طلبات من محامين عالميين للدفاع عنها. ألهمت قصتها العالم، وانطلقت مظاهرات تضامن معها في كل مكان، خرج الملايين للشوارع، بلافتات تؤيدها، يحملون صورها، ويضفرون شعورهم بطريقتها، ويرفعون أيديهم حاملين تفاحًا فاسدًا للأعلى.

ذهب عتيق

حدّثته بغضب زائد عن اللازم، لم يكن يتوجب عليّ فعل ذلك. لم أدرك ما حدث إلا عند عودتي للمنزل وفي حقيبتي الهدية التي نسيت أن أعطيها له في زيارتي للمشفى. لا أعرف لماذا انفعلت عندما قلت ذلك، حتى لهجتك الغريبة المغوية لم تستوقفني تلك المرة. أطفأت نور الغرفة وأنا أبدل ملابسي، كان شعاع الضوء المنبعث من الغرفة المجاورة كافيًا، وقفت أمام المرآة وحدّقت جيداً بعينَيّ، ورأيت في عتمة سوادهما خيطًا من الضوء لا أعرف مصدره.

كنا أصدقاء حتى رأيتك يومًا في منامي. نُطيّر أسرابا من الحمَام لأعلى فوق مروج خضراء لا نهاية لها. رأيت الحمامات يحملن آشعة النور في مناقيرها الصغيرة، وتمدّها كأسلاك كهربية تضيء السماء بين بلادنا. من يومها تحوّلت داخلي من صديق إلى شيء أكبر، ومن يومها والأحلام تلد.

اجتمعنا على حب الموسيقى. ذائقتنا كالأرانب، حفرت أنفاقًا تمد الوصال بين بلادنا. كان الوقت كالأفق، بعيدًا وبلا نهاية في غيابك. وفي حضورك أصبح الوقت صافرة قطار تنذر برحيله. لذلك، فكرت أن أهديك تمثالًا لإيزيس؛ إلهة الحب، لتنقل إليك محبتي أينما كنت. وكلما رأيتك، شعرت بأني في حضرة ملك خارج للتو من أسطورة قديمة.

أمسكت بحقيبتي من باطنها، وسكبت كل ما تحتويه على سريري. ليس بحوزتي مُهدئ، لا منوم، لا شيء إلا بعض الحبوب لآلام المعدة والهدية. أفكر في ابتلاع الأقراص مرة واحدة لينتهي الألم كله في دقائق، لكني رغم كل ما مر بي، مازلت أخشى تلك الدقائق التي تسبق الموت، لا أريد أن أنتظر.. أفضل الموت بسرعة، أرمي الحقيبة في مكان قريب، وأمسك بالهدية. أحرك باطن كفّ يدي اليسرى بهدوء كي لا يوقظ شراسة ما ينتشر به من ألم يتوغل نحو الساعد، التهاب الأعصاب، تذوقت ملحًا على طرف شفتيّ فعلمت أن قطرات تسقط من عيني.

ارتديت قميصًا قطنيًّا وجلست على طرف السرير، وأخذت علبة كِريم سائل برائحة اللوتس، وضعت بعضًا منها على كف يدي، ثم ذراعي، وعنقي. أستنشق رائحته التي تزيح عني إرهاق اليوم. فكرت في كتابة آلاف الكلمات ولا أكتبها، ربما لأني أعرف كيف أحاصر نفسي بما أكتب. هناك قلق ما يشوب ذهني. فكرت في وسيلة لأهرب من المواجهة، وأختبئ من عُري روحي.

أغمضت عينيَّ، وقبل أن أستغرق في التفكير، فكرت في نومك على خصام مني، وعرفت أني لن أستطيع النوم. يشكّني ضميري لأني انفعلت أثناء حوارنا، خاصة وأنت طريح الفراش بالمستشفى. ارتديت ملابسي وحملت الهدية، غادرت المنزل بسرعة، بصورة مشوشة للشارع رأيتها من وراء دموعي. كانت خطوات قدمي أسرع من خفقات القلب. طِرت إلى العنوان، وأدركت فجأة الألم الذي تعانيه في جسدك، والذي قد يكون سبب الضيق الذي شعرت به في

محادثتنا الأخيرة. هل كان القدر يختبرني بك؟ يا إلهي، إن كنت أنا المقصودة فلا ذنب له، وإن كان هو المقصود؛ فحمّلني ذنبه.

وصلت إلى غرفتك البيضاء. ومن نافذتها الزجاجية رأيتك نائمًا. مرّ الطبيب فسألته عن حالتك وأخبرني، وطلب مني التبرع بالدم. هل كان يعلم أن ذلك حلمي؟ أن تمتزج دماؤنا؟ دخلت غرفتك أنتظر، وأرسل الطبيب ممرضًا يحمل كيسًا بلاستيكيًا سيمتلئ بدمائي بعد قليل. جهز أنبوبًا شفافًا طويلًا ووضع الإبرة في ذراعي، كانت يدي الأخرى مشغولة تمسح على جبينك، كما كانت تفعل أمي في مرضي وأنا طفلة.

قال الممرض إنه سيعود بعد قليل بعدما يمتلئ الكيس بدمي، شغلت نفسي عن ألم الإبرة بالتفكير بك. تبارك اسمُك يا أميري النائم، كم أنت جميلاً في نومك. كطفلي الكبير، وأخي التوأم، وأبي الشاب! لولا بعض الفزع الذي يخفق بقلبي بين حين وآخر؛ لأخبرتك بالحقيقة.

في حجرة المستشفى أجلس، أرى دمي الأحمر القاني يملأ الكيس، بالتأكيد هذه القطرات محظوظة لأنها ستسري فيك. تؤنسني بوجودك رغم نومك إثر جرعة المخدر التي سلبتْ وعيك. أحمل الكيس وأقترب، أقبّل جبينك، وأصلّي همسًا. غارق أنت في النوم ومكبّل بأحلامك. أريد استيقاظك وأخشاه، أخشى أن تكرر حديثنا السابق، عن المرأة التي تشغل بالك، والتي لم تكن أنا.

أطفأت النور، ووضعت يمناي على جبينك، وتلوت بعض آيات القرآن من ذاكرتي. كان هناك ضوء خافت ينبعث من الممر

القريب من الغرفة. وكلما حدقت في الظلام رأيت كرات قوس قزح الملونة. وفي النافذة الزجاجية يظهر جزء من القمر المنير، وتمنيت لو أنكَ لي؛ لتضيء سواد عالمي مثله.

كنت أحلم في الصغر أن يكون لي بيت بلا سقف، لكي أنام تحت السماء مباشرة، وأمد يدي وألمس نجومها. استبدلتها مؤقتًا بِقِطَع بلاستيكية ملتصقة بسقف الغرفة، تضيء في الليل كنجوم وأقمار. وعندما كبرت فسدتْ وانطفأ نورها، ولكن صورتها في عقلي مازالت مضيئة، تبدلت بنقوش ووجوه أشخاص أحلم بهم. لكني منذ عرفتك، لم أر إلاك. ورأيت في عينيك ليلًا صافيًا، ونجومًا برّاقة، فاعتبرتك بيتي المطل على السماء.

حاولت الاسترخاء وفشلت، كنت قلقة كأم وضعت مولودها الأول منذ دقائق، وتخشى عليه من هذا العالم فتود لو ترجعه لرحمها مرة أخرى. مددت يدي لحقيبتي وسحبت قنينة عطر اللوتس الأخضر الذي أحب رائحته في كل شيء. كنت قد اشتريتها من متجر لخلاصات الزهور، ووددت يومها لو أستخلص لك روحي وأضعها في طرد يقص المسافات بيننا. وضعت بعضا منها في باطن يدي وقربته منك، ورأيت رعشة خفيفة بين حاجبيك، فعلمت أن رسالتي قد وصلت.

حاولت الاسترخاء ثانية بطريقة تنفُّس قرأت عنها من قبل، شهيق سريع وزفير بطيء، التنفس جوارك عملية تنقية روحية، مثل رقّة الصمت بعد انتهاء الموسيقى. أغمضت عينيَّ، وشهيق، زفير، شهيق، زفير. أفكر في عذوبة حروف اسمك. شهيق، زفير، ظهر لي أحد النقوش في مُخيلتي، وتراقص أمامي. فتحت عيني على

صوت أنينك الخافت، ثم عدت للتنفس من جديد بعين مفتوحة. فظهر النقش ذاته من جديد. ظننت أنها خيالات من انقطاع الضوء. استمرت اللعبة؛ شهيق، زفير، نقش غريب يظهر ويتحرك. تشكلت النقوش كرسوم على مسلة فرعونية، تركت حائطها ودارت في فراغ الغرفة كأن عاصفة تدور في منتصفها. ثم انتشرت حولنا، فسحبت نفسي إلى كرسي بعيد، ربما تختفي.

جلست، فابتعدتْ عني النقوش فجأة لتجسد شكل رجل، كان شخصًا يصعب التكهن بعمره، في قوة الثلاثين، وملامح الأربعين، ونظرة الستين، وخفّة العاشرة. أسمر البشرة، يرتدي جلبابًا أبيض فضفاضًا، تنعكس عليه الأضواء الخافتة الآتية من الممر والقمر، فيبدو كأنه يضيء.

وقف أمامي مفرود الظهر والعنق، وضع يده اليمنى على يسار صدره، تمتم ببعض الكلمات التي لم أسمعها، رفع يمناه فجأة ونظر للسماء ثم خفضها رويدًا رويدًا حتى اقتربت مني.

وقفت لأتأكد أن ما يحدث حقيقي، فوضع يديه على غرّتي، أغمضت عيني، تلا بعضًا مما يتمتم به، فتحت عيني لأجد جدران الغرفة المظلمة متوهجة أكثر بالرموز الخضراء الفسفورية، وشعاعًا من الضوء القوي يأتي من النافذة، ومازلت أنت في ملكوت آخر. نظر إليّ وابتسم، وهمس: «أنا رسول من القمر، أحملكِ إلى ما تمنيتِ، تعالي معي».

- لا أستطيع الآن، روحي هنا.

- اذهبي بجسدكِ يا ابنتي، مَن منا يسافر بروحه؟! أجسادنا ترحل

وتبقى أرواحنا مع مَن نحب. سنعود قبل شروق الشمس، وسأحميه لحين عودتك.

لم أعرف من هو، لكن الأمل في تحقق أمنيتي بأن أخفف عنك ألمك، جعلني أصدق أي شيء. رأيته يقترب منك، رسم عدة دوائر في الهواء فوق رأسك فتكونت خيوط من الضوء الأخضر صنعت تاجًا ملكيًّا مزخرفًا. قال إنها تميمة تحفظك حتى نعود، وأكد لي أني سأحصل على علاج يزيح عنك الألم، كان قلقي عليك كبيرًا، لكن رغبتي في شفائك أكبر. اقتربت منك، قبلتُ جبينك، قبل أن أمشي.

فتح النافذة، ووقف أمام ضوء القمر منحنيًا. مد يده اليمنى بمحاذاتي فوضعت كفي عليها. وطلب مني أن أغمض عيني ففعلت. كنا قريبين إلى درجة أن يحس أحدنا بالآخر، وبعيدين حتى إننا لا نكاد نتلامس. شعرت بيده الأخرى تحيط بخصري، وبأن قماشًا يغطيني من رأسي حتى أسفل قدمي. سحبني فجأة وأخذ يدور ويدور بقوة، كأننا نرقص رقصة عنيفة، لا يفلتني من يده، ولكني أرتفع عن الأرض كلما زادت حدة الدوران، حتى شعرت بنا نطير، فتحت عيني فوجدت جناحين أبيضين كبيرين يحملاننا كالمروحية، يتحركان رأسيًّا نحو القمر. كنا نحلق في الليل، والأرض تتضاءل، وأقترب أكثر من القمر، ويكاد نوره يعمي عيني.

شعرت بغصة، كأن الجاذبية تشد جزءًا من روحي للأسفل، كدت أبكي من فرط ألمي. «تماسَكي». قال. شدّني بقوة كأنه خشبة تدعم عودًا أخضر لنبتة زعفران، وجدت نفسها فجأة في جليد أبيض، أغمضت عيني ونمت.

بلمسة باردة على جبهتي؛ أيقظتني. رأيت ضوء النهار أولًا فأغمضت عيني، ثم فتحتها فوجدت امرأة شديدة الجمال، خمرية البشرة، ترتدي زيًا فرعونيًا أنيقًا، أزرق ناطق اللون، مُرصعًا بالذهب الأصفر، وبنقوش حمراء وصفراء تزين عنقه وذيله، وزهور اللوتس الخضراء مرسومة على الأطراف. يكشف الثوب عن ذراعيها، ومن قمة كتفيها ينسدل وشاح ملكي، يمتد طويلا خلفها، كأنه النيل وكأنها منبعه.

شعرها الأسود الفاحم زاد من جمال لون بشرتها السمراء، وجدائله برّاقة، كلون عينيها العميق. التفتّ أبحث عن صاحب الرداء الأبيض فوجدته بالخلف، راكعا على قدم واحدة، واضعا يده على صدره ويرنو بنظره للأرض. أشارت له السيدة فتحول لطائر صغير أبيض، ورفرف ليقف على يد ذهبية لكرسي فخم.

بدأت السيدة بالحديث، وأنا أتحسس الأريكة التي أتمدد عليها، قبل أن أعتدل وأتبين ماهية المكان الذي يحتويني، قالت:

- أنتِ لا تعرفيني بالطبع، لكني أعرفكِ.

- مَن أنتِ؟ وماذا تريدين مني؟ وما الذي أتى بي إلى هنا؟

- كثيرة الأسئلة كما توقعت.. أنا إيزيس.

- جميلٌ اسمُكِ، يذكرني بالملكة الأسطورية التي فعلت من أجل حبيبها الأهوال.

أشرق وجهها بضحكة، وقالت:

- أنا هي.

- مستحيل! ربة القمر! أم الطبيعة! سيدة العرش! المُبصرة الكاهنة البديعة، صاحبة القلب الوضاء، ومنشأ الحب، وأصل الوفاء.. تمزحين!

- نحن - المصريين - نمزح كثيرًا، لكن مزاحنا يحوي الكثير من الصدق.

أمسكتْ بيدي، وسرت خلفها خوفًا من هذا العالم الغريب. كطفلة تختبئ في ذيل رداء والدتها أمام الضيوف. أشارت إليّ لأتقدم وأسير بمحاذاتها فرفضت، فقالت:

- تقدمي، نقِّ قلبكِ من الخوف يا ابنتي. الكون كله لكِ، أنت بصحبة إيزيس.

- إيزيس ملكَتِ الكون كله من أجل حبيبها، وأنا لا أملك شيئًا أمنحه إياه.

- أليس لديكِ حبيب؟

- بم يخبرك قلبكِ عني؟

صمتت قليلاً، ضمت يديها أمام صدرها، أغمضت عينيها، فأضاءت الدُّرّة الحمراء في التاج الذي ترتديه. همست: «ألم». سألتُ: «من آذاكِ يا ابنتي؟». طقطقتْ بأصابعها فانتبهْت لاختفاء سرب من الوصيفات كان يلحق بنا. اقتربتْ مني، ووضعتْ يدها على عينيّ، وشعرت ببرودة كفيها على وجهي الساخن، فأخذتني في حضنها، وهمستْ في أذني ممازحة: «أفلح ذاك البهيّ». بكيت، فقالت: «من شِيم الملكات ألا يبحن بوجعهن إلا للآلهة». أفلتتني من ذراعيها، وابتسمت، وأشارت إليّ لأتبعها.

خرجنا من دهليز طويل تبين لي مما يزينه من نقوش ورسوم أنه ممر بأحد القصور الفرعونية. هل أحلم؟! لا أهتم، فرغم أن الخوف ملح الحياة، إلا أن ما أراه في هذه اللحظة طيب المذاق، أريد الاستمرار فيه على أي حال.

كنا نسير على أرض ترابية ملساء، مزروعة بأشجار جميلة ومنوعة، وكان النيل في الأفق. أخبرتها أنني كنت هنا بالأمس مع أربعة من أصدقائي، صديقتين وخطيبيهما وأنا بالخلف، أسير بمفردي وأفكر في مَن أحب، وأملأ رئتيّ بهواء النيل. الوضع الآن مختلف، لا زحام، لا جسور، لا سيارات، النيل والأشجار فقط.

اقتربنا من النيل، فبللتْ يدها بمائه، ثم ملأتْ حفنة منه وشربتْ، أغمضتْ عينيها كأنها ترتوي الشهد. شربت مثلها، فوجدت الماء باردًا ونقيًّا، غسلت وجهي وحدقت به في صفحة المياه. سواد الكحل لم يمسح تمامًا، بل لوّث المنطقة المحيطة بعيني. سقطت دمعات من عيني في النيل، لاحظتني إيزيس فاقتربت، وربتت على كتفي، غمستْ يدها بماء النيل ومسحتْ وجهي وهي تقول: «أعمِّدكِ بماء النيل ضد الألم، يا نهر الوجع المتدفق داخل هذه الصبية.. قف، وامنحها مزيدًا من الحياة المبهجة، اعكس صورتها الحقيقية على مرآتك، وامنحها من اسمها نصيبًا وافرًا. اطبع على قلبها تراتيل السلام والمحبة، واحمها من نفسها. يا نهر السعادة تائه الطريق، هذه صبية تُريدك، تشتهيك، ترغب بك.. سِرْ بداخلها كما يسير الماء البارد في قلب أرض مصر الطيبة. تدفق، واغمرها بك، رطّب روحها، وليّن غضبها. امنحها الفرحة والحياة، أرشدها إلى الطريق كما أرشدتني إلى حبيبي أوزوريس».

ملأتْ كفيها أكثر من مرة وغسلتْ وجهي أثناء صلواتها، كلما بكيت أكثر أبدلت لي دموعي بماء النيل، وشعرت بجلد وجهي يتجدد، كأنها تذيب صدأ الحزن عن ملامحي. قلت لها: «تعلقتْ روحي به.. وأخشى إن ذهب»، وضعت إحدى يديها على قلبي والأخرى على قلبها، وقالت: «ليس ذهبًا إن ذهب».

«أريدكِ أن تساعديني». قلت. أخبرتني أنها تخشى عليّ مما يحدث إن تعافيت وهجرتني. «إيزيس التي فعلت المستحيل من أجل عودة الروح لحبيبِها، من أجل احتمال، لا تفكر هكذا»، صمتت. قالت إن لديها حلًّا، ستقوم باستخلاص طاقة الشفاء من جسدي لأمنحها لك، فوافقت، لعل بعضًا مني يسري فيكَ فيرطب قلبكَ نحوي.

أخذتني لمكان بعيد خالٍ من الناس، وفي طريقنا مررنا على سوق كبير، توقفتْ عند صانع حُليّ وطلبت منه صناعة خاتم لكَ يحمل اسمك بالنقش الفرعوني. أوصت إيزيس أن يكون الخاتم من الذهب، لأنه لا يبلى ولا يصدأ ولو كان عتيقًا، تمامًا مثل الحب. سألتني إيزيس عن اسمك، فقُلته، فرأيت في عينيها نظرة شفقة عليّ، كان اسمك خاطفًا بما فيه الكفاية، تحدثنا قليلًا حتى انتهى الصائغ من تحفته التي حازت على إعجابنا بسهولة، وذهبنا.

قالت إننا في طريقنا إلى حديقة سحرية، وصلنا هناك قبل مغيب الشمس الحمراء. كان المكان غريبًا؛ ممر طويل تقف على جانبيه الأشجار ذات الأوراق الزرقاء الزاهية، والمسافات بين جذوعها متساوية، مرفوعة أغصانها لأعلى، وجميعها في نفس الطول الشاهق، يضفي عليها لون السماء جمالًا إضافيًا للمشهد.

دخلنا الحديقة فسقطت أوراق الأشجار على الأرض، كأم تزف ابنتها. وفي الأفق ضوء أبيض واضح، اكتشفت عندما اقتربت منه أنه منبعث من أشجار بيضاء، بجذوعها وأوراقها، والأرض تحتها مغطاة بزغب أبيض هشّ، وأغصانها عريضة الأوراق، تتصل أوراق الصف الأيمن مع الأيسر، كأذرع أصدقاء، لنعبر من تحتها، حتى وصلنا إلى بقعة أشجار بنفسجية، تحيط ببحيرة شديدة الزرقة.

بين شجرتين عملاقتين تدلت أرجوحة، أشارت إليّ إيزيس كي أجلس عليها. ثم وقفت خلفي ودفعتني، بهدوء ثم بسرعة، كدت أطير لأعلى، لم أشعر بأي خوف، كنت أريد الطيران لأرمي همومي التي تثقلني.

كانت الأرجوحة قريبة من الأرض، فلامستْ قدمي التراب في المرات الأولى. ثم بدأت تعلو وتعلو، وذراعاي كأغصان الأشجار المحيطة، تتشبثان بحبلها كما يمسكان بك. تدفعني إيزيس بقوة فأقف على الأرجوحة. وكلما زادت قوة دفعتها، تحررت من خوفي. أطير وأطير لأعلى، ينقصني جناحان لأحرر نفسي من الأرجوحة، وكأنها سمعتني وحققت أمنيتي على الفور. فقد نبت في ظهري جناحان عملاقان، وخفق قلبي بقوة كأن أمرًا جللًا سيحدث.

صفّقت إيزيس بيديها، وجدتني أطير..أطير فعلًا. الجناحان يرتفعان بي دون أن أحركهما، حلّقت في الهواء، أوشكت قدمي على ملامسة السحب. أنفاسي تتلاحق، والدم يتدفق في عروقي، وأشعر بالسعادة لأول مرة منذ شهور. كدت ألمس الشمس قبل أن يسقط نصفها في الأفق، انحنيت لها احترامًا، وعلّقت نفسي في الهواء أمامها. ضممت ذراعيّ معكوستين أمام صدري، وأغمضت

عيني. تسللت حرارتها إليّ، ودفئها غمر جلدي، كأنها أصابع يد محترفة تدلكني وتفك تيبس عظامي برفق. سخونتها شافية، كأني شربت دواءً أذهب عني وجعي. تركت جسدي يتشرّب آخر آشعة الشمس حتى ابتلعها السراب، وشعرت بدفء في قلبي فأدركت كمّ الجليد الذي انصهر حوله، هبطت رويدًا رويدًا لأجد إيزيس في انتظاري.

كانت تمسك بالخاتم، وبمجرد أن لامستْ قدماي الأرض؛ وضعَته في يدي قبل أن أفيق من اختفاء جناحيّ. دفعتني من كتفي اليمنى فدُرت حول نفسي، وأكملت استدارتي بدفعة لكتفي اليسرى. شعرت بالأرض تدور بي. «أيتها الربّة المباركة، يا ضوء القمر، كفى». كنت أقبض على الخاتم بكل ما تبقى لي من وعي، أخذت أدور وأدور وهي تكمل دفعي. أقبض بيديّ أكثر وأكثر على الخاتم كي لا يسقط، تمامًا كما أتشبث بأحلامي حتى لا تضيع في دوامة الحياة. سرقت نظرة خاطفة، كان هناك ضوء أزرق يسير في شُرياني، أستطيع رؤيته من تحت جلدي، ولكن أسقطني دوران الأرض حولي.

عندما فتحت عينيَّ، كانت الأشجار البنفسجية عن يميني، وجنّة من زهور الشمس عن يساري، انتبهت لأول مرة أن المشهد بلا صوت غير صوتها. لا زقزقة عصافير، ولا حفيف شجر، كأنها تغيّر طبيعة الكون بوجودها. اعتدلت، فرأيت الزهور مصفوفة كأنها جنود مدربة. كانت إيزيس تقف عند الخط الفاصل بين الحديقة والشجر، في النقطة الواقعة أمام البحيرة.

وقفت، ورأيت الأسماك الملونة تقفز فوق البحيرة، اقتربت منها،

وسألتها: «هل انتهينا؟». فضمّت كفيّها أمام صدرها، ثم فتحتهما فتحولت إيزيس إلى طائر ملون. طارت في الجو وخفقت بجناحيها، وفردت ذيلها البديع الملون بين الأبيض والأخضر والبرتقالي، ونثرت خلفها سربًا من اللآلئ رأيته في آخر ضوء للشمس.

ركضت أسفلها، حاولت جمع اللآلئ التي تسقط منها بين الزهور، ولكن الأخيرة كانت أجمل فقطفت بعضها. وخفت أن أفقد الخاتم، فارتديته، ووجدت إيزيس عادت لهيئتها، جالسة على قوس قزح.

أشارت إيزيس إلى البحيرة لكي أهبط فيها، ولكني متعبة، وأريد أن أبكي. كنت منهكة وأشعر بوحدة وخواء، كطفلة تيتمت حديثًا، لا بئر تحميها، ولا عزيز يحتويها. هبطت من سمائها وقالت إنه آخر جزء في المهمة. وضعت الزهور التي جمعتها على حافة البحيرة، وهبطت. ووجدت أن الماء كثيف القوام، ثقيل الحركة، كأني أسقط في رمال متحركة.

جلست إيزيس على الحافة، أمسكتْ بالزهور واللآلئ وألقت بها واحدة تلو الأخرى في البحيرة، فشعرت بحركة الماء أسرع، وجدت حولي دوامات مائية تتنافس كل منها على ابتلاعي. كنت أغرق، وأستغيث بوجوه في ذاكرتي، فلا ينقذني أحد. أغرق، وأستغيث بنفسي، فتخذلني قوتي، فأستسلم. ألمح صديقتي ترمي زهورها ولآلئها حتى تنتهي منها. أراها من تحت صفحة الماء، تضم يدها أمام صدرها وتغمض عينيها، كقديسة تصلّي في خشوع.

تنمو الأزهار في الماء، تكبر وتتمدد وتكون أوراقها غابة متشابكة

على سطح البحيرة، كأنها مظلات صفراء عملاقة وأنا أسبح تحتها، وأرى لونها ممتزجًا بالماء الأزرق فأظنه استحال للأخضر. سيقانها تحاصرني كأني خلف قضبان حديدية، وتشتبك مع اللآلئ التي تضخمت ككُرات من العاج، تحيط بي وتشدني للأسفل. الماء يبتلعني وأستسلم له.

ظننت أنني مت، وأن جثتي هي التي لمست الرمال الناعمة، ولكني كنت في القاع. اختفى الضوء بالتدريج، وكان الظلام شديدًا. الأسماك الملونة صارت أكبر حجمًا، لم أتبين ألوانها في السواد، كنت أشعر بها تمر جواري من حركة الماء القوية، وأحداقها السوداء تلمع كأنها نجوم في ليل البحر. كم هي غريبة الرؤية في العتمة! كأن عينك تعتاد اللون وتألفه، وربما تحبه، وتحاول التأقلم معه، ولكن ذاكرتها البصرية تأبى أن تمحو الألوان والصور، فترى السواد موحشًا أمامك فجأة، كغول يلتهم طفلًا.

شعرت بضآلتي وسط تيارات الماء القوية التي تشير لانزلاق كائنات ضخمة إلى جواري. أصبحت بينها كعُقلة الإصبع. ذكرتني بك الأسماك، كنت أشبّهك بها لقلّة كلامك ورداءة ذاكرتك، وكنت تشبّهني بها لحُبي للبحر. أحاول دفع نفسي للأعلى فأشعر بالماء يكبلني، أحاول كتم أنفاسي لأموت، فلا يحدث، أنا دومًا عالقة في مكان لا يشعر به أحد أبدًا. تركْت الأسماك تجذبني في تيارها. سأترك نفسي أضيع، أريد أن أضيع، وأفقد الذاكرة، كتلك الأسماك التي تنسى وتضل طريقها في العتمة، لكنها تواصل السير إلى المجهول، فتعيش حياتها تلف الكرة الأرضية مرات ومرات، ظنًا منها أن هناك نقطة وصول وراحة أبدية. تيارات الأسماك الضخمة

حوّلت المياه إلى جدران محددة المسار، ورغم صغر حجمي، إلا أن حركتي بدأت تصبح انسيابية عندما تركْت نفسي للتيار، كأن إيزيس سخطتني إلى سمكة، أو ربما تُلقنني درسًا في التوقف عن المقاومة. في الأفق ظهر بعض الضوء، كأنه ممر متجه إلى أعلى، وفي آخره نور.

سحبتني إيزيس إلى خارج البحيرة. رمتني على الأرض العشبية. وقفت على بُعد خطوات، جميلة كلوحة لمايكل آنجلو على سقف كنيسة إيطالية، كنورس أبيض بديع يقف على شاطئ بحيرة زرقاء. كان منظرها مُبشرًا رغم ما فعلته بي. كان جمالها أكبر من أن يكون حقيقيًّا. فانتبهت لنفسي، فما يحدث كله ليس حقيقيًّا. ثم تذكرت أن هذه هي الحيلة التي ألجأ لها عندما يغمرني الألم. أقول لنفسي ذلك عندما يخذلني أصدقائي. أقول إن جرحي الدامي هو صورة في المرآة وليس في قلبي. وإن البحر الذي رأيتني أغرق فيه، كان جزءًا من منامي، وإن كان حقيقيًّا، فهو ليس بحرًا، وإنما بضع دمعات ضلّلت رؤية عيني، وإنها ستجف بعد قليل، مثلما سيجف جسدي من ماء البحيرة. رفعت يدي أمام عيني لأتأكد أن ما يحدث ليس حقيقيًّا، ولكن جلدي اخضرّ لونه، كأن البحيرة صبغتني، اعتدلت، وبدأت أفرك في يدي ووجهي ليعود لوني الطبيعي، ولكن إيزيس لم تتركني أرتاح.

جذبتني من يدي، وأخذنا نركض بين حقول الزهر حتى سقطْتُ من التعب، خلعتْ عنها وشاحها الأزرق ودثرتني به. في غيبتي عن الوعي كنت أسأل نفسي: ألا يكفيها ما فعلت؟ لقد رفعتني لأعلى سماء، وقذفت بي إلى أعماق الأرض، هذه لعبة إيزيس التي تتقنها،

الحب. أذاقتني طعم فقدان الأمل الذي أعرفه، كان مُرًا ومألوفًا، وقاتلًا كالسم.

عندما فتحت عيني كنت فوق سحابة، حملتني إيزيس وارتفعت بي بجناحين ذهبيين نبتا لجسدها البشري. نمت على السحابة كأني في سريري. رفعتْ إيزيس ذراعي الخضراء نحو السماء، وبدأت تتمتم بكلمات لم أفهمها. فبدأ الأخضر يخرج من جسمي كأنه سيقان ورد، زاهٍ ونضر، تلتقطه إيزيس وتكوره، وتترك الكرات محلقة فوق السحابة. ثم أمسكتْ الخاتم المعدني، وأشارتْ إلى الكرات الخضراء، فاتجهن جميعًا إلى الخاتم وامتزجن، وتضاءل حجمهن، وأصبحن جميعًا قطعة واحدة كالعقيق الأخضر، تزين الخاتم.

ثم مدت يدها إلى السماء، وأخذتْ بعضًا من أزرقها، وفركته بين راحتيها، واقتربت مني ونثرته فوق جسدي. احتضنتني فشعرت بعظامي تتكسر، ظننت أنني مت وأن ما يحدث جزء من رحلة صعودي للسماء. ولمحت قبل أن أغمض عيني، إيزيس تعصرني بين يديها، والراحة تتسرب إلى جسدي لأول مرة في هذه الرحلة.

فتحت عينيّ لأجدني على نفس الأريكة في قصرها، أعطتني زجاجة رقيقة شفافة بها سائل، عرفته على الفور، شدّت على يدي التي تحتوي الخاتم، وقالت: «أعطهِ قُبلة من روحك».

طقطقت بأصابعها، فتحول الطائر الأبيض إلى نفس الرجل الذي جاء بي إلى هنا. عُدت كما ذهبت مع الخادم المطيع. مع شروق الشمس كنت في غرفتكَ بالمستشفى. مازلت أحبكَ، ومازلتَ تسبح في ملكوت آخر. وضعت بعضا من الزجاجة على كفّ يدي،

ومسحت بهِ وجهك، فرأيت استجابة جفنيكَ التي هدّأت من تعبي، ووضعت الخاتم في يدك، وسقطت أرضًا.

خبطات على وجنتي أيقظتني، رأيت رجلًا يرتدي الأبيض، كان معطفًا هذه المرة. قال الطبيب إنني فقدت وعيي بسبب الدم الذي غادر جسدي. اعتدلت، وفهمت أن كل ما حدث كان حلمًا، رأيتك مستيقظًا مبتسمًا، جوارك حقيبتي وزجاجة عطر اللوتس. تنهدت، وقُمت لأغسل وجهي وأنسى ما حدث، لولا أني لمحت الخاتم ذا القبة الخضراء في يدك!

القاتِل

في مقهى بمحطة القطار، جلست في طاولة ركنية، أمامي زجاجة مياة مثلجة تسيل قطرات البخار البارد عن جانبيها، أشرب منها كل قليل من الوقت، وأراقب الهواء وهو يكثّف القطرات على سطحها ويُسقِطها.

وضعت دفترًا أمامي وقلمًا لأكتب. أكتب لأقتل ما أفكر فيه، أكتب بطرف السكين لأجرح نفسي، لأنزف دمائي الملوثة، وأطبب الجرح لأعطي فرصة لجسدي لخلق أفكار ودماء جديدة، هكذا أجدد نفسي وأطهرها بالكتابة. مَن الذي أخشى أن يُجرح؟ مَن يستحق أن أضع رأيه في كفّة ميزاني؟ لقد حررتني الحياة منهم جميعًا، ولم يبق لي إلا وحدتي، فأهلا بها، وأهلا برحابتها.

جئت هنا لأكتب، لأن مقهى في محطة قطار بالتأكيد سيحدث فيه شيء ملهم. سيودّع أحدهم حبيبًا، أو يلتقي آخر بعد فراق طويل. سيتعرف اثنان على طاولتين منفصلتين بتبادل قداحة. سيمسح النادل الطاولة بيد ودمعته بيد أخرى بعدما عنّفه مدير المكان، سيتأخر القطار ويتعطل الركاب ويغضبون، أو سيأتي مبكرًا ويرحل فينسى أحد ركابه على الرصيف. طالما يوجد بشر، توجد أحداث، على الكاتب فقط أن يكون منتبهًا لما لا يُرى أو يقال.

من خلف الزجاج أتابع المارة على رصيف المحطة. أخمن سبب سفر كل منهم من حقيبته: هذا شاب يبحث عن فرصة عمل في محافظة أخرى. وحقيبته استعارها من جار أو قريب، قديمة ومنهكة ومغطاة بالتراب. تكاد لا تعرف لونها الأصلي، هل هو أزرق أم أخضر وغيّره الزمن؟ وهذه أسرة ذاهبة إلى البحر، بحقائب ملونة وبالونات. والأطفال يعلقون إطارات بلاستيكية حول أذرعهم. وهذه امرأة مسافرة وحيدة. ربما لزيارة أو لعمل أو استجمام، تجر حقيبة وردية أنيقة اللون. ربطت في ذراعها المعدنية قماشة ملونة كأنها عنق مرأة. وهذا الرجل ذاهب إلى عمل بالطبع! حقيبة كلاسيكية متينة سوداء. بملة أنيقة ونظارة شمسية سوداء، و«بايب» يدخن منه وهو يجر حقيبته.

هذا نوع الزجاج الذي أجلس خلفه. كأنه نظارة تريني عري أحلام الناس ووجهتهم. هل يمكنني فعل نفس الشيء إذا نظرت إلى داخل المقهى؟ تأملت قطرة ماء ملتصقة ببلاستيك الزجاجة التي أمامي. وعددت ١، ٢، ٣. فسقطت مثل دمعة على الخد، وقتها الهواء في الوقت الذي توقعته.

جلست أنظر للمكان حولي. كل فترة يدخل أشخاص جدد للمقهى. في طاولات بالمنتصف جلس مجموعة من السائحين الأجانب. بينهم سيدة جميلة بشعر قاتم وعينين خضراوين، ورجل بوجه وشعر أحمر اللون. كأن الدم سينفجر منه.

وفي طاولة جانبية، جلس شابان بملامح آسيوية، أحدهما يشرب القهوة ويأكل قضمة من الكعك، والآخر مشغول بمراقبة هاتفه الذكي. ينظر إلى شاشته كل قليل ويبتسم ويكتب شيئًا. وأمامي؛

يجلس شابان مصريان، لا أعرف إذا كانا في انتظار القطار أو أنهما وصلا للتو منه، أحدهما يضع سماعات أذن ولا يرفع عينيه عن شاشة هاتفه، والآخر يأكل ويدخن بشراهة. في ركن بعيد، مقابل للركن الذي أجلس فيه، جلس رجل وحيد يضع أمامه زجاجة مياه، أمامه ورقة وقلم مثل طاولتي، وجواره زجاج كالذي بجواري. لا أعرف لماذا استفزني عندما رأيته، شعرت بأنه يفعل مثلي، لعله يفكر فيما أفكر فيه، أو يكتب قصة عني، عن امرأة تجلس في ركن المقهى لتكتب. ضايقني شعوري، أنا الراوية التي لا تحب أن تكون قصة. شعرت بأنه يتلصص عليّ ويراقبني، لعله يصفني الآن مثلما أفعل، لعلها صدفة أو مجرد توارد خواطر، فكرت في أن أتجاهله وأبحث عن شيء آخر.

حسنًا، لم يحدث شيء في محطة القطار بعد وأنا لن أنتظر أكثر، عليّ ابتكار شيء ما. قطرات الماء الساقطة من زجاجتي ذكّرتني بمقال قرأته عن أشكال الدموع، وكيف أنها تتبلور وتتشكل كالكريستال حسب حالة صاحبها. أمسكت قلمي وبدأت الكتابة، ووضعت سماعات أذني على موسيقى أحبها بأعلى صوت لتعزلني. فكرت في كتابة مقال عن تأثيرنا على جزيئات المواد، وإذا كان لدينا قوى غير مرئية بإمكانها أن تغير شكل المادة وتحركها. وتخيلت مثلا، أنه بإمكانها أن تُغيّر شكل قطعة من الثلج حسب أحاسيسنا، فإذا كنا نفكر في أحاسيس جميلة تَشكّل الثلج بأشكال جميلة ومنظمة، والعكس، يشكل أشكالًا غير منتظمة.

وإذا طبقنا نفس الفكرة على الهواء، فإننا نستطيع تحريك النسيم العليل نحو مَن نحب، وكذلك بإمكاننا إرسال صهد الصيف إلى

مَن نكره. كم أن أفكارنا خطرة ومجنونة! حمدًا لله على أننا لا نملك ذلك وإلا ما عاش أحد على الكوكب. لو كان ذلك حقيقيًا مثلا، لفكرت الآن في تجربة نظريتي، وحركت دخان القطار الذي عبأ هواء المحطة إلى داخل المقهى، ليصل إلى السائحة الجميلة، وبالطبع ستختنق من الدخان، وتبدأ بالسعال والكحة، حتى يحمر وجهها وتتوقف عن التنفس، وتتحول رحلتهم السياحية الجميلة لمأساة، هكذا فجأة. ويبيض وجه الرجل مرافقها في ذهول وشحوب من الصدمة، ويحاول الصراخ بلغته الأجنبية ولا أحد يفهم ما يقوله.

أما الشابان الآسيويان، فربما تدخل ذرات الهواء مع القهوة التي يرتشفها أحدهما، تدخل في حلْقِه، وبدلا من أن تسلك نفس مسار القهوة، تدخل في قصبته الهوائية، فيختنق ويموت. وينتبه الشاب الآخر، فيترك هاتفه الذكي ويحدّق فيه، ولا يعرف ما يفعل.

أفكر للحظة في كيفية قتل الشابين الجالسين أمامي، فأرفع عيني عن الورقة. وأتوقف للحظات عندما أجد أن المكان قد امتلأ بمسعفين ينقلون السيدة الأجنبية، والشاب الآسيوي. خلعت سماعة أذني لأتأكد أن ما أراه حقيقي وليس مشهدًا في خيالي. حدقت في صمت وذهول. هل قتلتهم بما كتبته؟ وهل سيتوقف مصير الشابين الآخرين على سطوري التالية؟ قبل أن أجيب، أشار أحدهما للنادل ليدفع الفاتورة، والآخر حدق بي وهو يغادر طاولته مهرولًا. لم يبق في المقهى سواي، أنا والرجل الذي يجلس في الركن المقابل لي. ورغم ما يحدث حولنا، وجدته ينظر إليّ ويبتسم، ويرفع يده ملوحًا بالقلم!

الركض فوق رمال رطبة

من الأرض أنمو، أخرج من بين براثن الطين اللزج، كشجرة تكبر فجأة، لتصير غابة ملتوية الفروع، متشابكة. تحول رأسي إلى قبّة خضراء داكنة، مليونية الوريقات، وتصلّب عودي قليلًا. لم أقو على انتزاع قدميّ / جذوري من الأرض. لكن شعلة النار التي هبّت خلفي، دفعتني لأقتلع قدميّ بعنف وأركض هلعًا. لا أعرف إلى أين أذهب، وأين أنا أصلًا؟ كل ما سمعته هدير مياه عنيف بجانبي.

كانت السماء غائمة، والبحر الذي وجدته إلى جانبي كحفرة عميقة من الحبر الأسود. هربت من النار وركضت، عرقلتني صخرة صغيرة كادت تسقطني أثناء هربي، التقطتها، ورميت بها في البحر. فصنعت دوامة صغيرة، اتسعت بالتدريج، اتسعت حتى كادت تبتلعني، ولا أجد مفرًّا. ألسنة النار كلاب مسعورة تلاحقني، وجسدي الذي لا يجد مهربًا، تجمد في مكانه كلحاء الشجر. نفضت نفسي، وركضت على خط رفيع كالأفق، ورأيت في ركضي طرف فستان أبيض اللون، خفيفًا ورقيقًا بوردات ذابلة، بالتأكيد كانَ جميلًا فيما سبق، كفساتين الأميرات في القصص، أريد أن أرى نفسي وأنا أرتديه، ربما أفعل ذلك بعدما أنجو من مأزقي. الركض أرهقني، وحفرة البحر تتسع وتلاحقني بأطرافها. والنار عن يساري تسن

أسنانها لتلتهمني، لا أدري لماذا لا يطفئ البحر هذه النار وينقذني، أو تجفف حرارتها مياهه فأجد طريقًا.

أهلًا بك في كوابيسي، أنت الآن في واحد من أسوئها. لقد استدعيتك في الحلم لأنك صعب المنال في الواقع. اعتبر نفسك متفرجًا على حوض سمك مغلق من كل الجوانب. أردت أن تعرفها فها هي. لقد ناديتك لتنقذني، وتوقظني، ولكنك لن تستطيع الآن، لم يكتمل الكابوس بعد. لعلك تراني جميلة في هذا الفستان الأبيض الذي أهديتني إياه، سأنجو به من النار، أو سأحترق معه.

الشاطئ مشبّع بماء البحر، بالتأكيد أترك آثارا بقدميّ على الرمال المبتلة، ربما بهذه الآثار تقتفي النار أثري. كلما ركضت، كلما غاصت قدمي في الرمل، تكاد النار تلحقني، شعرت بسخونتها تحرق أطراف شعري، فنظرت خلفي، وجدت جحيمًا، كأني غصت في قرص الشمس، نظرت أمامي قبل أن يصيبني العمى من ضوئها المتوهج، فرأيت شبح أمي يقف فوق صخرة بعيدة على الشاطئ.

استنجدت بها، ناديتها، كان شبحها جميلًا في الأفق. كأنه خارج من صورتها يوم زفافها، بفستانها الأبيض، ووجهها المستدير التفاحي، وملامحها الرقيقة. رأيت حبر البحر يمتد نحوها، خفت أن يبلعها كما يود أن يفعل معي، لكنه ضرب الصخرة بقوة، فتحول لون فستانها للأسود. تهدل شعرها وخفّ، ورأيتها عجوزًا بملامح منهكة، تحني كتفيها وتنظر في حزن، كأنها مغنية عريقة تقيم حفلًا ولم يحضر أحد. لا جمهور غيري، وهي على مسافة مني ليست بالهيّنة، عليّ أن أركض لأنقذها، أو لتنقذني.

سمعت صوتها، لم تكن تغني، كانت تنوح وتبكي، وتئن أنينًا موجعًا. الصخور محظوظة لأنها لا تسمع وإلا ذابت. تتوجع، ثم تتجمد ملامحها، وترمقني بنظرة قاسية أعرفها. هذه ليست عينها، وإنما عينا شبح المرض الذي يلبسها، الحقير الذي نال منها على غفلة. أتعثر وأسقط، فتلسع النار ذراعي، ويزداد اتساع دوامة الحبر الهائلة، وتئن أمي فوق صخرتها، فأبكي وأنهض بسرعة لأواصل الركض بوهن، وتبتلعني الدوامة فأسقط في ثقبها الأسود.

فتحت عيني بعدما آلمتني ذراعي، سقطت من سريري مرة أخرى. قمت لأغسل وجهي وأحاول أن أتذكر عدد الكوابيس التي رأيتها الليلة. شربت بعض الماء وصببت كأسًا منه وذوبت فيه أقراصًا صغيرة. واتجهت نحو غرفة أمي، أبقيت ظلامها كما هو لكي لا تدرك عكارة الماء، وأيقظتها لتشرب. فعلت ذلك باعتيادية كأني في وضع «نظام التشغيل الآلي». أتخيل حُبيبات الدواء تسري في شرايينها، وأحمل الكأس بعدما فرغت منها، وأعود للمطبخ لأغسلها.

أقف أمام المياه، أتأمل ذلك الاندفاع من صنبور صغير، كأنها وحش حبيس في الأنابيب وجد فرصته ليخرج. تختلط المياه بما بقي من حُبيبات، بيضاء، وبرتقالية، ووردية. أتركها تذهب إلى القاع، وأتخيل رحلة تلك الكريات في شرايين البناية. ربما ينتهي بها الأمر إلى أنبوب عملاق تحت الأرض، كتلك التي تعيش فيها سلاحف النينجا. النينجا! تذكرت فجأة أني كنت «مايكل آنجلو» في اللعبة التي لعبتها مع أولاد الجيران. كانوا يوزعون الأدوار لأنهم الأكبر، ويبقى من نصيبي دور السلحفاة ذات العصابة البرتقالية، وخشبتان

مرتبطتان بسلسلة قصيرة لا أعرف كيف أستخدمها فأضرب نفسي بها. هل كانت صدفة أن أحب «مايكل آنجلو» الحقيقي عندما أكبر؟ وهل هي صدفة أن أتذكره الآن فور استيقاظي من كابوس لم أستطع فيه النجاة بنفسي وإنقاذ أمي كما يفعل أبطال النينجا؟ هناك ملايين الاحتمالات لذلك، ولكن الاحتمال الأكيد أني أريد صوت الصنبور ليشوش على دماغي.

لم أرغب في العودة إلى سريري، فجلست على الأريكة وتأملت سقف الغرفة. الوقت سلحفاة عجوز، وكل ثانية تنبئ بكارثة قد تحدث في أي وقت. أخشى النوم فأحترق في حلمي. وأخاف الاستيقاظ فأدرك سوء ما وصل إليه الحال. أمسكت هاتفي واتصلت بك، لكن بلا نتيجة. كنا في منتصف الليل وبالتأكيد أنت نائم الآن، ربما تشاهدني في كابوسي الذي استدعيتك فيه. كان الجلوس بمفردي أشبه بالجلوس مع شخص لديه فوبيا من كل شيء، وبدا الحل المنطقي أن أقتني مسدسين تتصافح رصاصتاهما داخل رأسي.

قمت إلى مكتبتي؛ المصنوعة من سقف دولاب الملابس القصير. لم يكن لديّ مكان كافٍ للكتب، وكنت على عكس أختي، أملك كتبًا أكثر من ملابس، فأصبح ما يرتديه عقلي وجسمي في مكان واحد. بحثت في المكتبة عن كتاب يشوّش عليّ. وما إن سحبت الكتاب حتى تلوثت يدي الأخرى ببودرة سوداء كبرادة الحديد. بحثت عن مصدرها في خشب الدولاب، أو سقف الغرفة، لكنها كانت تنساب من أوراق الكتاب. فتحته وتذكرت، كانت به وردة حمراء قانية اللون ذات مرة، لم أجد إلا ساقها ورسالة مطوية،

لا أتذكر مناسبتها، ولا محتواها. فتحت الورقة التي ضمّت الوردة حتى قَتَلَتهَا، فوجدت نثرًا بخط يدي، جلست على مقعد قريب لأقرأ:

مع اقتراب القمر؛ أحتاجك

تمص دمي

بدلًا من أشباحي.

مع اقتراب القمر

يصيبني الفزع

من الضوء

الذي

قد يكشف لي

عن حقيقة صوب عينيّ، ولا أراها.

لا أحب تفكيري بهذه الطريقة

وليس لديّ سواها

ربما لي

لكني مرهقة من البحث

أنا حزينة يا حبيبي.. وهنا دورك

أنا حزينة ـ هكذا فجأة ـ لا أعرف لماذا، ولن..

هل من الطمع أن تحتضنني وتهدهدني؟

اعتراف: أنا طماعة!

طماعة، وطيبة، ومجنونة، ووحيدة، وغيورة، وعصبية، وشرسة، وضحوكة، وذكية، وعنيدة، وهلِعة، وجبانة، ومزعجة، ومنزعجة، وقَلِقة، ومرحة، وقوية..

قوية جدًّا في وجودك

وهشّة فيما سوى ذلك.

لا أتذكر متى كتبت هذه الخاطرة، وهل لها علاقة بأن الكتاب قصة فتاة تخاف مصاصي الدماء؟

شممت رائحة سيئة فنظرت خلفي، ووجدت طائرًا ضخمًا كالديناصورات ذوات الأجنحة.كان جسده بشريًّا، ولون جلده أحمر قاتم كالدم، مليئا بتورّمات وطفح جلدي مقزز. وله جناحان أسودان، وعينان بحدقتين بارزتين، بلا بياض حولهما. كنت في صحراء، سماؤها حمراء اللون، كأن شخصًا أشعل الحطب تحتها وتركها تنضج. وهذا الطائر الضخم، ينطلق كالبرق من مكان لآخر. يحلّق فوقي، وخلفي، يميني، ويساري. والرمال الناعمة تسحبني للأسفل، كأن الأرض عملاق يمسكني بكف يده. أنزلق إلى باطن الأرض، ولا يبقى إلا رأسي. وأشعر بالرمال تغلي، كأني دجاجة سقطت في وعاء أرز يُطهى. أشعر بحُبيبات الرمال تتقافز من الحرارة، تلسعني وتترك أثرها على جلدي، وأتخيل أنني إذا خرجت من هذه الرمال، فسيصبح جلدي قبيحًا كجلد الطائر المحلق في السماء الحمراء.

كان يسد الأفق بطيرانه، ويكبل تفكيري في أي حيلة للهرب. يحجب عني رؤية أبعد البعيد.. المدى، ويمنعني من أقرب

الغريب.. ذاتي. في كل رفرفة منه، ينثر رمادًا أسود بلون جناحيه.
كأنه يرسم لوحة من أعلى. دار ودار، وأسقط أكوامًا من الرماد. كان
يحلق في دوائر منتظمة، يصغر قطرها بالتدريج، لأصبح أنا مركزها،
تمامًا كلوحة نيشان. حتى جاء دوري، وأسقط عليّ من رماده، فكأنه
لكمني ودفعني إلى العمق. وجدت نفسي أهبط بين طبقات الأرض،
ورأيت ما قرأت عنه من ألوانها، وصخورها. ولكني ألمح ذلك أثناء
هبوطي بسرعة الرصاصة، ورأيت وجه أمي معكوسًا على الصخور
كأنها ملايين المرايا. حاولت تحريك يدي ففشلت. فنظرت إلى
جسدي ووجدته عاريًا، ووجدت أنه أصبح شبيهًا بجلد الطائر
المقزز. بكيت، ووددت لو كان معي سكينًا لأقطع جلدي لينبت
مكانه جلد آدمي طبيعي. أريد مرآة، أريد أن أرى نفسي. لقد نسيت
ملامحي كيف كانت قبل هذا الطائر. الأرض تبلعني في جوفها
كأني لقمة تسلك مسارها بالمريء متجهة للمعدة. سأكون هناك
حبيسة طوال حياتي، لن يستطيع أحد إنقاذي من معدة الأرض، هل
ستبقيني أم ستلفظني إلى السديم. الجاذبية تشدني فيختل توازني
ويدور دماغي، وقبل أن أصطدم كالرصاصة في الحائط، أفيق.

هل هذا ما أردت معرفته عندما سألتني عن كوابيسي؟ هل
تخيلت أن ترى ذلك؟ أم حسبتني أتحدث عن فيلم أكشن
هوليوودي؟ لو كنت مكانك لغادرت فورًا من أمام حوض
الأسماك، أو أتيت بفأس وحطمته، حتى لو كان الحوض هو
دماغ شخص آخر. هذه الكوابيس مُعدية، تنتظر عقولًا تصدق
بها، لتسيطر عليها.

بأكثر عدد كوابيس في ليلة واحدة. متى يأتي النهار؟ متى تستيقظ أنت؟ متى تهاتفني؟ أحتاج لسماع صوت أي شخص الآن، ما عدا صوتي وصوت أمي. أريد صوتًا يفتتني ككأس أمام مُغنية سوبرانو.

غمرت وجهي ورأسي بالماء البارد، تحسست رقبتي ودلكتها، وبأصابعي لمست السلسال الذي أرتديه. اشتريته من متجر بالقرب من غابة زرتها في ألمانيا، كتذكار لجمال الطبيعة. خلعت السلسال وتأملته. حلقات ناعمة من القصة، معلق بها دمعة كبيرة، بداخلها مجسم زجاجي لشجرة صغيرة تلتف أوراقها على الإطار الفضي كأنها تخشى السقوط. بدت لي مختلفة بعض الشيء، فقد كانت شجرة مفرحة من قبل، بلونها الأخضر الداكن الجميل وخلفيتها الزرقاء الزاهية، وزجاجها الذي يحميها كأنها كوكب صغير معلق في رقبتي. بدت ألوانها قاتمة، وفروعها وأغصانها متكومة على جانب واحد، وتُشكّل تفريعات الأغصان وجه امرأة حاد الملامح. وريقات تزين جبهتها كأنها غرّة، وساقان متشابكتان تصنعان عينًا حادة، عينًا لم تعد تعرف ما حولها، عين ذلك الحقير الذي سيطر عليها.

تركت السلسلة، وانتبهت مع اقتراب الفجر إلى ما يحدث. أريد.. أن.. أنام. أريد أن أنام بلا كوابيس. أريد نومًا هادئًا كغيبوبة لا أرى فيها أي شيء. أعود لسريري، أتمتم آيات قرآنية قبل نومي، وأتمنى نجاح التجربة هذه المرة. أتأمل سقف الغرفة المظلم، وأتخيل أنه سماء واسعة، وأضع به نجومًا من خيالي لعلها تصبح جميلة. تصعد النجوم من رأسي إلى السماء كأنها بالونات، معلق بها أحلامي، وقبل أن تصل إلى نقطة استقرارها، تُثقب، فتحترق النجمة وتسحب حلمي معها.

عليّ الخروج من هذه الحلقة المفرغة. عليّ البحث عن بوابة، حتى إذا كانت موضوعة على قمة جبل جليدي شاهق، أو سأرسمها بطبشور على جدار غرفتي، أو سأتخيلها مكالمة هاتفية منك تطمئنني. أشعر بألم في أصابعي، أنظر إليها وأحاول تحريكها، فأجدها متورمة منفوخة، ثقيلة الحركة كأنها ملصقة بغراء طازج مستخرج من شجرة في غابات إفريقيا. أشعر بثقل سمائي/ سقف غرفتي عليّ. كأن فيلًا يؤدي تمرينات رياضية مستندًا على أكتاف نملة. تصمّغ جسدي كأنه تمثال، وعجزت عن الحركة على سريري. وددت لو أنني تمثال ملعون في متحف، وأنك عاشق للتاريخ ينقذني من جمودي. يراني بعينه الثالثة التي تدرك ما لا يراه البصر. تحاول فك لعنتي وتعيدني للحياة. تستخدم قواك السحرية لتنقذني من هاوية الخوف التي أرهقتني. لا مجال للراحة، ولا أمان للوقت. أنا أؤمن بأحلامي، ومن هنا أخاف الكوابيس.

هدير البحر ينبهني، أعود إلى صراعي بين الحرق والغرق بسرعة، كأنني كرة مضرب دفعها لاعب بقوة نحو الشاطئ. اختفت دوامة البحر، ولكن أمواجه تراكمت وارتفعت، كأنها قطّ متربص، يثني ظهره للخلف ليندفع فجأة ويلتهم فأرًا سمينًا.

شعرت بالنبي يونس لحظة ولادته من بطن الحوت. كنت كطفلة حديثة الولادة، حبل سرّي يربطني من خاصرتي، طرفه الآخر في مركز الكون. وأنا مستمرة في الدوران بسرعة شديدة في حلقة لا نهائية، كأني في الآخرة وهذا عقابي. أو كأسطورة إغريقية كُتب عليها الركض خوفًا وهلعًا. البحر ينتظر لحظة التهامي، والنار توشك أن تشويني. وأرى نفسي في منامي أركض منهما، وفي

السماء الغائمة، أرى طائرة محلقة تسقط منها أفكاري كالقنابل، تدمر مدينة عقلي.

أمي كالأفق، مهما ركضت لا أصِل إليها، ولا تقترب صخرتها من مداري. فتحت عيني، كنت على سريري في غرفتي، والبحر عن يميني والنار عن يساري. انقطع الخط الفاصل بين الحلم والواقع. أريد أن أنام، قدمي تؤلمني من الركض المتواصل، أريد أن أرتاح، هذا سريري سيحميني من البحر والنار، أو سأموت وتنتهي هذه الملحمة. سأقص الحبل المربوط في خاصرتي، أريد أن أقطع صِلتي بمركز الكون، أريد أن أواجه نفسي بخوفي، لعل تحرري منه ينقذني. أخشى الانفلات السريع إذا قطعت الحبل، أخشى أن أطير ولا ألمس الأرض مرة أخرى. أخاف أن أصبح أسطورة أخرى، بنيران أهرب منها وبحر يزأر إلى جواري. أريد أن تقذفني سرعة الدوران في الثقب الكوني، حيث تختفي الأشياء. أريد أن أنام لعلّني أكف عن التفكير في عجزي عن مساعدة أغلى مَن لديّ. أريد أن أفسد ماكينة عرض الكوابيس في دماغي، وأخشى أن يُرمى بي في المجهول. بحلقات لا أعرفها، وبحار ونيران لم آلفها، أخشى أن يربطني الكون بحبل أكثر قوة، أريد صوتك ليتوقف عقلي عن التفكير، أريدك أن تمسك كفّ يدي بقوّة كي لا أسقط في أعماقي. أجب على هاتفك، أنقذني بكلمات تشوّش على صوتي الداخلي، تُطمئن الوحش الساكن في رأسي. غنّ لي، هَدْهِدني، اطرد كوابيسي؛ لأنام.

المشي على الماء(*)

«انتبه.. أنت ترى الأشياء أكبر من حجمها الحقيقي»، ذلك مكتوب على مرآة سيارة، هو ما دار بخاطرها عندما نام أخيرًا في حضنها. هذه هي الفكرة التي رغبت في إقناعه بها، لم تستطع قولها، ربما لأن الأشياء الأصعب ترفض أن تجد طريقًا لها بالكلام.

فكرت في ذلك أثناء إعداد القهوة للصباح في أول أيام عيد الفطر. الصِّبية يلعبون في الشارع، وينزعون زينة شهر رمضان المعلقة على الجدران. ضحكاتهم تصل إلى الشرفة، وأضواء المفرقعات شموس صغيرة تلتهمها الشمس الكبرى في السماء. جهزت فنجانين من القهوة، وبحثت عنه في أنحاء المنزل، ولم تعثر عليه.

دخلت غرفة النوم مرة أخرى، وسمعت حكّة بالأرضية، نظرت أسفل السرير، فوجدته مختبئًا في مكان معتم مكتوم. كان هلعًا، ومرتجفًا، وباكيًا، وشاحبًا، ومنكمشًا، وصغيرًا، كطفل يختبئ من شبح عملاق. يضع يديه على أذنيه ويرتجف بعنف، ذاكرته تسجل حضورها من جديد كجلّاد تحيّته ضربة سوط.

نادت عليه كي يخرج من أسفل، خربش الأرض بأصابعه كأنه

(*) اختيرت هذه القصة ضمن القائمة القصيرة لأفضل قصة قصيرة من دول البحر المتوسط من مؤسسة «آنا ـ ليندا» برشلونة إسبانيا عام ٢٠١٥.

يود التشبث بها. ضغط جسده وانكمش أكثر، وتصلبت قدماه. انحنت وزحفت حتى وصلت إليه، تقابلت أنفاسهما، مسحت عرقه، وربتت على كتفه وضمته.

أرعبته أصوات مفرقعات العيد. ذكّرته بأشياء لا يريد تذكرها. «إنها مجرد ألعاب للأطفال» لم يبد أنه يسمعها، كان يرتجف بلا توقف. وكانت قد قرأت في كتاب من قبل أن الأجساد كالأسلاك توصل الطاقة، فسعت لملء جسدها بالنور لكي تضيء عالمه. أخذت رأسه بين ذراعيها وهمست بما تتذكره من آيات. خرجا بهدوء من أسفل السرير إلى أعلاه، دثرته فغرق في النوم سريعًا، نوم مشوّه ممزوج بهمهمات وشهقات، وصرخات مكتومة، كل قليل.

قبل ذلك الوقت كان طبيعيًّا. تعرفا في مكتبة، شاب عادي يختار أقلامًا وأوراقًا وألوانًا من مكتبة تشتري هي منها دفاتر وبطاقات ورقية. يمسك بباقة أقلام، ويختار بينها بعناية شديدة، كأنه سيرسم لوحة على الهواء أمامه. اختارها بشغف، شغف حُرِمَت منه منذ وقت طويل، شغف بأشياء بسيطة؛ قلم جديد، ورقة ناصعة البياض، وبعض الألوان.

شعرت برهبة، كانت ملامحه جميلة، قمحي البشرة، بعينين بُنيتين تميلان للون الأخضر على استحياء، ووجه منحوت. هذا السحر الذي تجسد في رجل يقف أمامها، بكل جماله الهادئ، وشغفه البسيط. سقطت الدفاتر والأقلام من يدها، وكما يحدث تمامًا في الأفلام، انحنى وجمعها وأعطاها إياها. كان بين ما استعادته قلم غريب وسميك ليس من بين مشترياتها؛ فأعادته له، وسألته عن نوع القلم، فقال إنه قلم بسيط، له سنّ واحد سميك ولكنه ساحر. خط

به على قطعة ورق صغيرة، ميّل يديه أكثر من مرة ليريها كيف يرسم. كان يرسم كمن يمرر أصابعه على رمل شاطئ البحر، وصمت للحظة، ثم ناولها القلم لتجربه.

أمسكت بالقلم وتجمدت، فنظر إليها مشجعًا، كانت نظرته أكثر من مجرد تشجيع، تحديقه في عينيها كأنه يريد اصطياد سمكة ذهبية تقفز في بحرها. جربت القلم بخطوط ملتوية، كان ناعمًا وقويًّا. أمسك بالقلم ثانية ورسم، واكتفت هي بالمراقبة، كان ملهمًا بكل ما يفعل دون أن يدري، ودت لو أنها تُخرج دفاترها وأقلامها وتكتبه رواية. يتدفق البريق من عينيه ليصنع نهرًا من السحر، ويصطحبها معه في رحلة صبيانية على ظهر طوف.

وقعا في الحب، تزوجا، ذهبا في رحلات، رسما الكثير من اللوحات، حلما معًا، وسافرا إلى كل ما استطاعا. إليه. أحبت نفسها في حضرته، وشعرت بأنها كما ترغب تمامًا، بسيطة وعفوية ولا تريد شيئًا من العالم. كان وجود كل منهما في حياة الآخر كالاستناد إلى جذع شجرة ضخم، أو مظلة تحمي من المطر. كان كل منهما مصباحًا لحياة الآخر، متشابهين في النور والظلام.

اعتاد هو السفر إلى بلاده كل فترة ليطمئن على أهله ويعود. ولكن بعد اندلاع الحرب فيها، تغيّر الأمر، كبّله العجز، وقيده القلق، وسيطر الشرود على عقله، كأنما يحمل خارطة بلاده الجريحة في قلبه، وصور القتلى وأصوات القنابل تحاصر مجال رؤيته وسمعه. إذا رأى شعلة نار على الموقد هبّ لإطفائها، وإذا سمع صراخًا في مكان ما ركض نحوه لمحاولة إنقاذ المستغيث. حاولت امتصاص قلقه واستيعاب غضبه، فحسبت حسابًا لكل تصرف قد يثير

أعصابه، لكن هناك أشياء لم تستطع السيطرة عليها. لم تقدر على منعه من تخيل أطفال يستحمون بقطرات الثلج في المخيمات، بينما هو يستحم. لا تقوى على منع نساء يصرخن في مشاجرة بالشارع يُذكرنه بأخريات يستغثن من القتل. مفرقعات العيد كانت آخرها، فكل دويّ يسمعه يهزّ بنيان جسده، يذكره بمفرقعات أخرى لا يفرح الناس بها، ولا تسقط عليهم إلا احتفالًا بقتلهم. استيقظ بعد ساعتين، نظر إلى الغطاء طويلًا، وقال لها: «نحن في منزل، له جدران، ونوافذ، وبه غطاء، وطعام،.. هذه رفاهية». صمتت، فتابع: «في بلدي، يتسلمون بطانية واحدة في المخيم، يحرقون أجزاء منها يوميًا كي يدفئوا قليلًا في الثلج».

اقترحت عليه أن يذهبا لمكان آخر لقضاء إجازة العيد، جهزت الحقيبة وانطلقا بالسيارة إلى مدينة ساحلية. في الطريق استمعا إلى أغنية «هنا الشام» لفرقة «جين»، تركاها تعيد نفسها أكثر من مرة. أغنية ذات حزن شهيّ، بصوت جميل وموسيقى غاضبة وحزينة، وكأن اسم الفرقة «جين» يحمل شيئًا من الجينات الوراثية للوطن. تقول كلماتها: «هنا الشام.. هنا قلبي، هنا قلبكِ، هنا حُبّي.. على كعبك، وأنا عم طيّر حمَام.. طير لعندها يا حمَام.. خدلها قلبي سلام.. هنا الشام.. آه يا شام».

توقفا عند استراحة على الطريق لشرب الشاي، إلى جانب المتجر كان هناك خليج مائي كبير، متعرج الحواف، محاط بالمباني من كل النواحي، وفي الأفق يذوب اللون تدريجيًا، حتى إن الخط الفاصل بين السماء والبحر غير موجود. عندما نظرا إليه، شعرا بأنها حافة العالم، أو بوابة سحرية للخروج من غلاف الكوكب، تأملاه

ثم تابعا طريقهما. وتبع ذلك مسطحات أخرى أصغر وأكبر، محاطة بالمباني أو بالزرع، وتبدو المياه هي الأصل والأرض دخيلة عليها، فهي تحيط بكل شيء ببحيرات صغيرة وأنهار قزمة وخلجان ضيقة، بعضها تمشي فيه قوارب صيد صغيرة، والآخر يعوم فيه البط.

وصلا إلى منطقة مثل التي سبقتها، لكن يبدو أن مخلفات المصانع فعلت فعلتها، فقد تكونت طبقة جير سميكة على السطح، غطّت كل شيء كأنه ثلج سميك، سماء رمادية وثلج أبيض مصطنع، منظر ساحر من بعيد وصادم عن قرب. فكرت هي في المشي على الجير واختبار قوّته، أوقف السيارة، وخلعت حذاءها وتشجع وفعل مثلها، وجرّبا المشي خطوتين، تكسّر الجير وغاصت الأقدام الأربع، لم يكن سميكًا كما توقعا، فضحكا وعادا إلى السيارة.

قررا إلغاء خطة المدينة الساحلية، والذهاب إلى أي بقعة ماء قريبة بمفردهما، توقفا في مكان مثل الواحة، مليء بالنخيل والأشجار وبعيدًا عن الناس. صنعا خيمة من سجادة كبيرة كانت بالسيارة، وكسّرا بعض أعـواد الأشجار كحطب. وضعت بعض أوراق الصحف على الأرض وثبتتها بسلة الطعام، وتركا الأغنية تأتي من مسجل السيارة.

حلما بسرقة بعض الوقت، يوم، يومين، سنوات، إلى الأبد، أي وقت يستطيعان أخذه من محفظة الزمن. بدّلا ملابسهما، واستلقى هو على العشب، بينما ذهبت هي لتسبح، غاصت قدماها ثم جسدها، شعرت بأنها دُلفينة تؤدي رقصة في الماء على «هنا الشام»، نادت عليه، فبلل قدميه أولًا وبدا مترددًا، شجّعته، فلحق بها. أضاء وجهه من ملامسة الماء البارد، وظهرت ملامح الراحة

عليه. غاصا وصعدا إلى السطح، حاولا لمس الأسماك، نبتت له زعانف فضية، وكذلك لها، ضحكا ولعبا، وكاد كل منهما أن يسمع دبيب الفرح في قلب الآخر.

خرجا وجففا نفسيهما، ودخلا خيمتهما الصغيرة، الكوكب الهش الذي يعزلهما عن العالم، ذهب في غفوة، وبقيت هي تتأمله. تذكرت مقولة: «النائم يأكل أرزًا مع الملائكة»، شعرت بالغيرة من تفكيرها في ذلك، ثم تحولت غيرتها إلى خوف بعدما أدركت أنها تغار مما لم تره من قبل. وسألت نفسها أيهما أصعب، خوف المجهول أم المعلوم؟ وقبل أن تسترسل في التفكير، انتفضت بعدما سمعت صوت طلقات نيران من مكان بعيد.

قام مفزوعًا، ورأى من مكانه بعض الصيادين على بُعد، حاولت التخفيف من حدة الموقف فقالت: «ربما يصطادون البط»، فبكى، وقال: «يصطادون الأطفال بنفس الطريقة في بلادي، الموت فيها كالمغناطيس، يجتذب كل ما يقع في مداه». ربتت على كتفه واحتضنته.

توسطت الشمسُ السماء، فمزَّقت ورقة من الجريدة، صنعت منها عروسة ورقية. هذه حيلة قديمة ساذجة متوارثة، تعلمتها من أمها لتطرد بها الشرور. تصنع عروسة ورقية بالمقص ثم تشكّها بدبّوس، ومع كل شكّة دبوس تَذكر اسمَ حاقدٍ أو حاسد، ثم تحرقها بعود كبريت، وتنظر إليها حتى يحترق العود والورقة، وبهذا ينتهي الشر.

التقطت دبوسًا من حقيبتها وأمسكت بالعروس الورقية، لم تذكر أسماء المعارف والأهل والأصدقاء، ولكنها ذكرت أسماء السياسيين والقتلة؛ مَن دقوا طبول الحرب ورقصوا حول نيرانها،

مَن أيدوها وبرروها ودعموها، ومَن تجاهلوها أيضًا. تآكلت العروس المسكين من كثرة الشكشكة، سحبت قداحة وأشعلت طرفها، وقالت: «انظر يا حبيبي، كلهم يحترقون بما فعلوه».

نظر إلى النار قليلًا، ومط شفتيه بابتسامة باهتة. فصمتت وحدقت في البحيرة. سألها عما يُقلقها فلم تُجب، خجلت من همومها الصغيرة، كأنه يحارب وحشًا ضخمًا بينما تحارب هي بعوضة. كل الأوجاع مقارنة بفقدان الوطن والذكريات بلا قيمة، كل المشاكل تافهة وحقيرة، إذا ما قارنتها بشيء أكبر «أنت ترى الأشياء أكبر من حجمها الحقيقي». كيف تمنطق فقدان البيت والأهل والذكريات؟ كيف تفهم مسح ذاكرة الطفولة والصبا بممحاة رديئة، لا بيت ولا لوحات ولا ألوان، ولا هرب من النافذة، ولا لعب بالكرة في الشارع، كل ما عاشه انمحى، وكأنه بلا تاريخ سوى القهر. ماذا تقول له؟ كيف تقنعه بأن هذا العالم لا يفهم الرسم؟ وكيف تقنع العالم بأن هذه اللوحات أكبر من مجرد لون على ورق، وأن الوطن أقيم من حدود جغرافية يتنازعون عليها؟ كيف نعيش في عالم نحن فيه عرايا بلا أرض ولا ظهر، أغراب تائهين في متسع العالم، لا تختفي ذكرياتنا كالبالون في السماء، ولكنها تترسب وتقوى وتتصلب، كالصخر في قاع البحر.

دمعت عيناها، فدمع مثلها وعلم بما تفكر فيه، احتضنها وأفلت يده، وخطّ بأصابعه على الرمل، رسم نصف قلب كبير فرسمت نصفه الآخر بيدها، صمتا ولم يبق في المكان إلا صوت مسجل السيارة يردد: «هنا الشام.. هنا الشام».

شجرة القطط الذهبية

كنت أقف في الشرفة أشرب كوبًا من الشاي عندما رأيتهما؛ طفلان من أبناء الجيران. أبوهما صانع أحذية وحقائب جلدية. أحدهما في السابعة والآخر أصغر منه بعام أو بعامين ربما. تسللا بهدوء وبحوزتهما شيء غير واضح الملامح.

حمل الصغيرُ الشيءَ الملفوف في كيس بلاستيك أسود، واقتربا من حائط لمنزل مهجور من طابق واحد بلا سقف، وتفقدا المكان في حذر شديد، ثم أمسك أحدهما بالكيس وحفر الآخر حفرة صغيرة، وأخرج الثاني ما بالكيس ووضعه بالحفرة، وكانت قطة صغيرة ميتة، ثم غطيا جسدها بالتراب.

ناديت عليهما من شُرفتي: «كيف ماتت؟»، حسبتهما كالأولاد الأشرار خنقاها بحبل أو عذباها أو ركلاها بأقدامهما، ولكنهما قالا إنها ماتت بمفردها دون أن يلمسها أحد. سقطتْ من أعلى سطح منزلهما إلى الشارع، فحملاها ودفناها، قالا ذلك وغادرا.

وقفت قليلًا أشرب الشاي وأتأمل حكمة الصغيرين اللذين عرفا الدفن مبكرًا جدًّا، وتعرفا على شبح الموت من خلال قطة مسكينة. تخيلت حياة تلك القطة الراحلة، كيف قفزت ولعبت وخربشت! كيف أكلت من القمامة وجرت أمام عجلات السيارات الضخمة!

كيف هربت من المشردين! وكيف صعدت إلى أسطح المنازل تشاكس الدجاج والطيور وتقاسمها لقمة عيشها! واستغرقت في تفكير في حياة القطة واحتمالية كونها بـ «٧ أرواح» كما هو شائع. ولكن هذه الفكرة أثبتت خطأها، فقد ماتت القطة بروح واحدة، ودفنها الطفلان، أو لعل هذه آخر أرواحها السبع.

عاد الطفلان بعد قليل، وفي يد أحدهما زجاجة مياه، رشّ فوق قبر القطة الصغير بعض الماء، حسبته يريد التخفيف عنها من حرارة الجو. ناديت عليه مرة أخرى: «لماذا؟»، قال: «لكي تكبر شجرة قطط». فضحكت كثيرًا من سذاجتهما، هل يحسبان القطة الصغيرة الميتة مثل بذور الشجر الصمّاء؟ ضحكت مرة أخرى من براءة تفكيرهما، وقلت لهما أن يذهبا ويلعبا بعيدًا عن قبرها.

في الأيام التالية، رأيتهما يعودان إلى نفس النقطة، يفعلان نفس الشيء، يرويان القبر بالماء ثم يغادران، ولا شيء ينبت. ذهبت لأبيهما لأصلح حقيبتي الجلدية في محله. وهناك أخبرته بما رأيت من ولديه. قال إنهما كانا يلعبان مع القطة بأدوات تصليح الجلود، وماتت منهما. وهو مَن أخبرهما بطريقة دفنها حتى يُكفّرا عن جزء بسيط من الخطأ، ويتعلما أن الروح مقدسة في أي شكل توجد فيه. وكلما رأيتهما يرويان القبر في الليل، فكّرت في إحساسهما بالذنب نحوها، ورغبتهما في ترطيب روحها تحت الأرض.

الوقوف في الشرفة كان طقسًا ليليًّا معتادًا، أجرد فيه هموم اليوم وأسجلها في دفاتر أرسلها للسماء، وأجدد طاقتي بنسيم بارد، وأتأمل أضواء الطائرات والنجوم. نسكن في منطقة شعبية على أطراف

المدينة، وعلى بُعد منا فلاحون يُربون الماشية والبغال. ما اعتدت سماعه هو أصوات غريبة منبعثة من مستشفى أمراض نفسية قريبة منا، زرتها مرة بالصدفة عندما وجدت بابها مفتوحًا، وفوجئت عندما مررت أمام إحدى النوافذ الطويلة العتيقة. رأيت يومها عددًا كبيرًا من المرضى في ملابس متسخة ووجوه مرعبة، انتبهوا لوجودي فاندفعوا نحو النافذة، يمدون أيديهم ويمسكون الفراغ، أو ربما تهيأ لهم أنهم يمسكونني. ورغم خوفي من أذرعتهم القصيرة، إلا أن قلبي أوجعني لتكدسهم بهذه الطريقة، لمجرد أنهم فقدوا عقولهم.

كلما وقفت في الشرفة ورأيت المستشفى تذكّرتهم. ثم اعتدت الانتقال ببصري لتأمل المنطقة المطبوعة صورتها وصوتها في ذاكرتي. أمام الشرفة منزل مهجور، تلعب فيه القطط والكلاب الضالة كل مساء، وإلى جانبه رقعة أرض خالية، تفصل بينه وبين أقرب منزل، والذي يسكنه الفلاحون، وبعد المنزل رقعة أرض مزروعة، ويليها سور المستشفى، وفي الأفق طريق سريع بعيد، هذه ذاكرتي البصرية. أما السمعية فتتمثل في مواء يتحدى نباحًا، وهمهمات قادمة من بعيد، وصدى أبواق سيارات بعيدة. كان مواء القطط الليلية مثل بكاء الأطفال، حتى إنني أحيانًا ما أخلط بين صوت ابن جارتنا الرضيع وصوت القطط، وأسأل: أي منهما مستيقظ إلى هذا الوقت؟ لكن الفيصل هو صوت الأم التي غالبا ما تصرخ وتدعو الله أن يرحمها. إذا توقف الصوت علمت أنه الطفل، وإذا لم يتوقف كانت القطط.

كان الضجيج مألوفًا والحيوانات ساكنة في الليل كما المنطقة بأكملها. إلا أنني مؤخرًا بدأت ألحظ أنوارًا تضيء وتخفت داخل

المستشفى، تظهر من نوافذها المحاطة بسياج، ومن خلف الحديد تتحرك خيالات بشرية. وبدأت أسمع نهيقًا، وهو ما لم يكن معتادًا، وكلما سمعته استعذت وانقبض قلبي، ووقفت على أطراف أصابعي أحاول أن أرى أبعد مما يمكنني رؤيته، لكني لم أتبين ما يحدث!

وفي إحدى الليالي، كنت أشرب الشاي في الشرفة كعادتي، عندما سمعت نهيق حمير عالي الصوت. فاستعذت، وبقيت في مكاني، أراقب الأنوار التي تذهب وتعود في ممرات المستشفى، ثم ذهبت ولم تعد. انفتحت نافذة، ورأيت شخصًا يتعلق بقضبانها الحديدية كأنه قرد، وخلفه مَن يحاول جذبه للأسفل. رأيت أحزمة جلدية في أيديهم، وسمعت طرقعتها على جلد القرد الذي لا يجد مهربًا. كان خياله هزيلًا أمام خيالاتهم. انتهى المشهد سريعًا بعدما جذبه شخص قوي، وأغلق زجاج النافذة مرة أخرى، وساد السكون. مرت أيام بعد هذه الحادثة ونسيتها، ولكني لم أنس انقباضة قلبي كلما سمعت نهيقًا.

من يومها، الوقوف في الشرفة لم يعد كما كان، أصبحت مهمة مراقبة؛ أظل طوال الليل أراقب المستشفى، وأنظر إلى قبر القطة. القمر في السماء كما هو. لكن حركة غريبة بدأت تظهر يومًا بعد يوم. القطط الضالة التي تشاكس الكلاب لم تعد تفعل ذلك، بل تجتمع إلى جوار قبر الراحلة وتحوم حوله، تزمجر وتموء، وتدور حول نفسها، تخربش الجدار، وتظل هكذا حتى أول خيوط الشمس.

تحدثت مع صديقتي التي تربي القطط لأفهم منها سلوكها. قالت إن قططها أحيانا تصير مجنونة، تدور في البيت بلا هدف،

تصرخ وتقفز من مكان لآخر، وتختفي أحيانًا. وتهتاج بقية القطط في المنزل وتفعل مثلها. سألتها عما تفعل، فقالت: «لا شيء.. أغلق عليها الباب». قالت إنها تخشى أن تكون هناك روح شريرة أو جن قد رأته القطط، لذلك تفضل ألا تحتك بها في مثل هذه المواقف، ولكنها تُبقي باب الغرفة مغلقا، حتى تهدأ القطط وتعود لموائها اللطيف، فتفتح لهم. قالت إن القطط مثل المجانين تمامًا، أحيانا تكون كائنات لطيفة، تظن أن لها عقلًا سليمًا واعيًا، وفجأة تتحول إلى كائنات غير مفهومة، مرعبة أحيانًا، يُفضَّل أن تغلق عليها كي لا تؤذيك.

مرت أيام، وحدثت تلك الواقعة التي رأيتها أثناء ركوبي لسيارة أجرة. كنت أجلس إلى جوار سائق يطير بأربع عجلات، ودعوت أن نصل دون أن نصدم أحدًا. من مقعدي الأمامي رأيت قطة انتهت لتوها من البحث في القمامة، وقررتْ عبور الشارع أمامنا، كانت على بُعد خطوة من العجلات التي أسرعت لتلتهمها، لكنها أفلتت منهما في اللحظة الأخيرة، أو هكذا ظننت. لم أر القطة تموت، ولم أرها تركض للخلف أو للجانب الآخر. اختفت ببساطة، وسألني السائق الذي لاحظ انزعاجي: «ماتت؟»، فقلت: «لا.. اختفت». أوقف السيارة، ونظرنا للخلف معًا، لم يكن هناك أي قطة في الشارع، فتركت العربة المجنونة قبل أن تفعل المزيد.

مشيت خطوات، ورأيتها ثانية ولكن بين أيدي صِبية أشرار، يركلونها، يحملونها فوق الأعناق ثم يقذفونها لبعضهم البعض، تسقط أرضًا وتحاول الهرب، فيحاصرونها، ويُفزعونها بأصوات

ضحكاتهم الشريرة والجلبة التي يحدثونها من لعبهم. أثاروا تراب الشارع بأقدامهم في وجهها، وقذفوها لبعضهم البعض. حاولت القطة الفرار من بين أيديهم وأرجلهم، وكلما ذهبت يمينًا ركلوها يسارًا، والعكس، حتى ربطها أحدهم بحبل من عنقها، وجرها في الشارع والآخرون خلفه كأنهم في مظاهرة. صرخْت بهم، حاولت إنقاذها من بين أيديهم، فرموني بالحجارة وركضوا في اتجاهات متفرقة، وقذفوها لبعضهم البعض. لاحقتهم في الشارع، تمنيت أن تركض نحوي لأنقذها، لكنهم تابعوا لعبتهم الدنيئة حتى صارت جسدًا بلا روح، فرموها جوار القمامة وذهبوا.

شعرت بالذنب نحوها لأني لم أستطع إنقاذها، حملت جسدها الهزيل المشوه، ومشيت نحو المنزل أبكيها. حتى وصلت إلى المقبرة الصغيرة تحت شرفتي، حفرت إلى جوارها ودفنتها، وواريت سوءتها. ونويت أن أفعل مثل الغربان الصغار اللذَيْن علّماني الدفن، أروي جسدها الظمآن كل يوم، لعلها تسمن وتتعافى، وتسترد صحتها بالموت.

صعدت للمنزل، فسألتني أمي عن الطريق وإذا ما وصلت للمنزل بسهولة، فاستغربت سؤالها، قالت إن الشرطة ملأت المنطقة منذ الصباح، بعدما علموا بمقتل مريض في المستشفى القريبة، وعثروا على جثته قرب نافذة مكسور سياجها وزجاجها، والفاعل ما زال مجهولًا.

في هذه الليلة لم أقوَ على الوقوف في الشرفة لأرى قبرًا حفرته بيدي. اختلطت في رأسي صور وخيالات كثيرة. تخيلت قطة

يتقاذفها المرضى في المستشفى، ومجنونًا يرميه الصِّبية بالحجارة. نمت، ورأيت في نومي قمرًا مكتمل الاستدارة، يقترب من الأرض، ويضيء عتمة الليل كأنه مولّد كهربي فوق بِناية. ورأيتني في حلمي، أقف في الشرفة ككل ليلة، أراقب القطط المخربشة للجدار، وبينهما قطة كبيرة، تقف بهدوء، ممطوط جسدها، ومتصلبة شعيرات الذيل، وتحدّق في القبر كأنها ستنبشه، أو رأت فأرا ستلتهمه. دققت النظر فيها، كانت القطة التي دفنتها قبل قليل، مطت جسدها نحو الخلف، ثم تقدمت نحو الحائط، ظننت أنها ستُصدم به، لكنها اخترقته، واختفت. وهاجت القطط بعدها، علا مواؤها واختلط، بعدما رأوا ضوءًا أخضر يخرج من الحائط، كأنها ثقبته بجسدها.

انتشر الضوء كأنه نهر يشق طريقه، ورسم بآشعته على جدار المنزل المهجور شجرة بأغصان كثيرة، وبها فرعان كبيران كأنهما ذراعان ممتدان إلى السماء. على إحداهما رأيت القطة التي دفنتها، تتخلى عن جلدها وتُصبغ بالذهبي. وعلى الأغصان الأخرى مئات القطط الذهبية، تلعب وتقفز من غصن إلى غصن، تتسلق الجذع وتصعد لأعلى ثم تقفز من أعلى الشجرة المرسومة على سور المنزل. بدا المنظر جميلًا ومتناسقًا، الشجرة الخضراء، والقطط الذهبية، والليل الأسود، والقمر الفضي. أرسل القمر ذراعًا من النور وأمسك غصن الشجرة، وما إن فعل، حتى سارت القطط نحو الخيط الأبيض، تقف على طرفه وتترك نفسها فيحملها لأعلى، كأنه سَيْر حقائب في المطار.

مد القمر ذراعًا أخرى، فانفتحت نوافذ المستشفى. ولأول مرة،

رأيتها بلا سياج. وبدت طرقاتها مضيئة بضوء أخضر، ورأيت المرضى يقفزون من النوافذ ويركبون أشعة الضوء ترفعهم لأعلى، كأنهم في مدينة مَلاهٍ. تابعت ببصري ذراعي القمر الذي كان سطحه قريبًا جدًا. فرأيت القطط تقفز وتلهو على أرضه في سعادة، والمجانين في نعيم، ولم يكن ذلك مجازًا، ولكن حديقة خضراء كبيرة، يلعبون فيها مع القطط، يعطفون عليها، ويحتضنونها، ويركضون خلفها. واستمر ذلك حتى اختفى المواء، وصعد آخر راكب في الملاهي. ضم القمر الأرواح البيضاء في جعبته، فازداد توهجًا ونورًا، ثم سحب ذراعيه وابتعد، وعاد صخرًا وبعيدًا كما كان!

بيتزا على روح الساحرة

أتذكر نغزة في ذراعي اليسرى، وقبضة في قلبي. وأشعر بأني بدأت في كرّ خيط لن ينتهي إلا بنهايتي. هذه اللحظة التي تشعر فيها كأنك تقف على حافة هاوية، لا تعرف كيف تتقدم، ولا مجال للتراجع، ولا تعرف ما ينتظرك بعد. الشيء الوحيد الذي تعرفه، أنه حان موعد الاختبار. وهذا الاختبار ليس سهلًا، ولا نجاح أو رسوب فيه، وإنما مرايا، سترى نفسك على حقيقتها، ولن يمكنك محو ما رأيته أبدًا.

أخبرتني صديقتي أن العجوز الشمطاء قد ماتت. هذه المرأة الشريرة المنحوسة، المقوسة الظهر، والتي تشبه انحناءتها أجساد الساحرات الخبيثات، بملابسها السوداء الممزقة، ونظرتها الآتية من أسفل، كأن شيطانًا يكاد يخترق جسدك. تلك التي أسمع قصصًا عنها منذ بدأت أدرك ما يدور حولي. بالتأكيد لم أظلمها، فيوم وفاتها، رأيت من نافذتي في الطابق الخامس، سماء تتلألأ بالألعاب النارية الملونة، لأول مرة منذ سكني في هذه البناية منذ عشر سنوات. أترى؟ لم أكن وحدي مَن فرح بموتها، كانت الأرض تحتفل معي!

لم تُتح لي الفرصة لأفكر في هذه المرأة إلا بموتها. في البداية أوجعني قلبي من لفظة «الموت»، ولكن عقلي نبهني كي لا أحزن

عليها. لقد كانت شريرة ولا جدال في ذلك، عليّ أن أعود لطقوس ليلتي وكأن شيئًا لم يكن، بل وعليّ الاحتفال!

قبل أن أسمع الخبر بدقائق، كنت قد عُدت من العمل منهكة، وقررت مكافأة نفسي بتحضير بيتزا في المنزل. كانت هذه محاولتي الأولى لصناعة بيتزا منزلية، وكنت متحمسة للغاية لصنع شيء أحبه. وعندما سمعت بالخبر، فكرت في التراجع عن الطبخة، رغم أني حضرت لها قبلها بأيام. كنت أذهب كل يوم إلى السوق وأشتري شيئًا ما؛ مرة طحينًا، ومرة زيتونًا، وجبنًا، وأخرى طماطم وكوسة ولحمًا مفرومًا. أتذكر أني تذوقت مرة بيتزا خضراء، كانت الكوسة مضافة إلى عجينتها، وأعجبتني كثيرًا، وقررت صناعة مثلها، ولكن ما حدث جعلني مشوشة قليلًا.

رغم أن علاقتي بها لم تتخطَّ الكوابيس والرعب، إلا أنني شعرت بالذنب لتفكيري في الاحتفال أو على الأقل تجاهل يوم موتها. لطالما أرعبني صوتها، ومظهرها، وجسدها المنحني كالحرباء. أما عيناها فكانت كفيلة ببث الرعب في جسدي لأيام. كنت مقتنعة تمامًا في طفولتي أنها ولدت عجوزًا وستموت عجوزًا. وأن هذه المرأة ستسخطني يومًا ما إلى تحفة أو دمية من الموضوعة على دولاب أوانيها القصير، أو تقطع عنقي وتعلقني كرأس الثور المعلق على حائط شقتها. سمعت من جيراننا عنها حكاوي عجيبة ورأيت بعضها بنفسي. منها أن أي طفل تراه يختفي فورًا، ويجده أهله بعد أسبوع ملقى في بالوعة مفتوحة أمام بيتها. لقد رأيت طفلة من هؤلاء بنفسي، كان جسدها أزرق وملامحها مموهة عندما التقطها أهلها من البالوعة المفتوحة في الشارع. وفي شبابها الذي

لا أستطيع تخيله، حكى لي الجيران أنها ذبحت كلبًا وارتدت رأسه كقلادة. وكانت تسير بالرأس الضخم معلقًا على صدرها كل يوم أمام أهل الحيّ. لطالما سألت نفسي عما ستفعله بي إن وقعت في قبضتها، عن إحساسي عندما أصبح رأسًا بلا جسد، أو غرقي في البالوعة السحرية. قبل أن أستثير ذاكرتي بالمزيد عن مشيتها التي تشبه الزواحف، وصوت حكّة نعلها بالأرض كذيل التمساح، كان عليّ أن أنقذ نفسي، وأتجه فورًا للمطبخ لأحضر العجين.

لماذا البيتزا؟ لأنها وبخلاف كونها الأكلة الأكثر شهرة وشعبية في العالم، فهي مناسِبة لكل الحالات المزاجية. تأكلها دسمة ومليئة باللحم وأنت غاضب، وتحبها خفيفة بالخضراوات ومخفوق الطماطم وأنت سعيد. وفي الحفلات والتجمعات قد تفضلها بأكثر من مذاق لتناسب الجميع، وأخرى غارقة في الجبن صديقة الوحدة والسهرات والأفلام. البيتزا تطبطب على ذاتك وتشبع روحك، وتؤنسك عندما ينساك الكل.

وضعت الخامات السائلة مع بعضها البعض في إناء، والجافة مع بعضها البعض في إناء آخر. كنت أتبع طريقة مفتوحة أمامي على صفحة ويب، أنظر إلى اللاب توب وأقرأ ثم أعود للتنفيذ. وعندما أمسكت الملعقة لأقلب الخامات، رأيت وجهها يذوب في الدوامة الصغيرة داخل الوعاء فأضفت ملحًا، الكثير من الملح، كان مليئًا بالتجاعيد، قاتمًا، بعينين تحتهما أزرق يميل إلى السواد، واحمرار في زوايا عينيها. كدت أن أتوقف، إلا أني وضعت المكونات السائلة، وقرأت أني لا بد أن أخفق المواد كلها بيدي لتصبح العجينة ليّنة، ففعلت.

عندما لمست يدي المكونات شعرت ببرودتها، وبالتصاقها في يدي، وباليد الأخرى وضعت قليلًا من الزيت، وبدأت في التقليب، ولكن شيئًا ما كان يقلّب أفكاري. ما احتمالية أن تكون هذه المرأة طيبة؟ هل ظلمتها ملامحها؟ هل كانت جميلة عندما كانت أصغر؟ لا أتوقع ذلك. رأيت لها صورًا عندما كانت في عقدها الخامس وكانت شريرة أيضًا.

أضفت بعض الزعتر للعجين، وذكّرني لونه الأخضر بزرع الصبار الذي كانت تزرعه فوق منزلها. كأنها تحيط سطح المنزل بسياج من شوك. تسللت مرات في طفولتي ورأيته، وحلمت به ليلًا: صبار أخضر يتحول للأسود، تطول أذرعه وتحتد أشواكه، كأنه أخطبوط بجلد قنفذ، يقبض عليّ ويعتصر دمي، قبل أن يسلمني لها. لم أستغرب أبدًا عندما كبرت وعرفت أن الصبار «نبات الموت»، يُطلق عليه هكذا لأنه يجذب الطاقة السلبية ويعيش في بيئات صعبة، وهل هناك بيئة أصعب من بيت هذه الشمطاء التي كانت تُعذب صغارها بربطهم وتحميصهم في شمس الظهيرة؟

تشكلت العجينة تمامًا في يدي، ووضعت قليلًا من الزيت وتركتها في الوعاء بعد أن غطيتها بمنشفة مطبخ لتقوم الخميرة بسحرها. وفي الوقت الذي كنت أقطع فيه الخضراوات إلى أجزاء صغيرة، ولا أعرف لماذا خطر ببالي أن موتها ليس خلاصًا وإنما بداية لسلسلة من المصائب، كأن جسدها سينشر سمّه في الأرض، فينبت المزيد منها. هناك شيء في داخلي يريد أن يبكي ولكني لا أفعل. هناك أحداث يكون فيها قلبك كنخلة صلعاء. لا دموع ليسقطها، ولا حياة لتنضج فيه، ولا نحيب ليورق ويخضر من جديد.

أنت كجذع النخلة الخاوي، يظنك الناس قويًا وصلبًا ومرتفعًا عن الألم، إلا أنك غرقت فيه، وشربته كله، فخشن مظهرك، وعطبت روحك، فمت واقفًا.

جهزت الصينية المعدنية، ووضعت رشة زيت ووزعتها بالفرشاة، ثم العجين المفرود وفوقه كل ما أحببت، ووضعتها في الموقد، وتخيلت احتراق الشمطاء وتحولها إلى رماد. عُدت للشرفة لأشاهد الألعاب النارية، وبحثت عن مصدر الأضواء، لعله افتتاح لأحد المحال. الأنوار تزين الليل، ورائحة الخبز تعبئ المنزل. الدفء الآتي من المطبخ هدّأ نبضات قلبي. فكرت، إذا كان العالم سيفعل مثلي، هل سكيفينا طحين الكوكب؟ إذا مات كل البشر الذين نكرههم، هل سيبقى أحد ليخبز؟ كلنا بين كاره ومكروه، ولكل ميتة مذاقٌ في حلق الآخرين. وقفت أنتظرها تنضج على مهل، أتأمل المنازل وشرفاتها، وأسأل نفسي: كم بيتزا تُخبز الآن؟!

الأمير الكبير(*)

ما هذا الشيء الذي يظهر في الأفق؟ هل ما رأيته كان شبحًا أم خيالًا هيأه لي دماغي؟ من يتحرك في صحراء مظلمة قاحلة وسط عاصفة ثلجية مثل هذه؟ هناك شيء يُحدث جلبة. حسبه الأمير الوحيد في الصحراء حيث أحد أصدقائه الذين تاه عنهم، أو متعلقات شخص ما تحركها الريح. لكنه سمع وقع خطوات وصوت عربة خشبية، هذا الصوت الذي طالما سمعه في الأرياف عند توزيعه للبطاطين باستخدام العربات «الكارو» الخشبية. ظنّ أن فرقة إنقاذ جاءت أخيرًا، لتنقذه هو ومن معه بعد أن فرقتهم العاصفة الثلجية، لكن، لماذا أتوا بالخيول وسط هذا الثلج؟ لماذا لم يأتوا بسيارات؟ ربما هم من البدو؟ كانت أسئلته كثيرة كصهيل الخيل الذي بدأ يتضح شيئًا فشيئًا.

رأى الأمير ما لم يصدقه، حسبه هلاوس البرد، عربة خشبية بُنية اللون، بها قناديل إضاءة تحيط ما حولها، يجرها حصانان في بياض الثلج، ويتبعها اثنان مثلهما، العربة مكعبة الشكل، مكسوة بقطيفة

(*) اسم القصة مستوحى من القصة العالمية «الأمير الصغير» لأنطوان دي سانت أكزيبري، والتي تحكي عن طيار سقطت طائرته في منطقة جبلية، والتقى هناك بأمير صغير طلب منه أن يرسم له خروفًا، ثم حكى الأمير عن مغامرته في كواكب عديدة زارها.

خضراء داكنة تبدو نظيفة تمامًا رغم تساقط الثلج. تتدلى من زواياها نجوم فضية برّاقة. توقفت العربة، وهبط منها جسم صغير، تبين بعد ذلك أنه لفتاة في العاشرة من العمر تقريبًا. ورغم أنها ترتدي فستانًا أبيض طويلًا جدًا، ممتدًا خلفها إلى ما لا نهاية، أطول من أي فستان على سطح الأرض؛ إلا أن وجهها كان خاطفًا بشكل يلهيك عن أي شيء آخر.

كان شعرها أحمر لامعًا، يتوهج لونه في ضوء القناديل، ينساب على الفستان الأبيض الطويل، وينافسه في الطول، مع بعض التمويجات الخفيفة التي تدَرج لونه كالشفق. وجهها نحيف، متورد بشكل طبيعي، بأنف دقيق وشفتين كأنهما انتهتا من أكل الفراولة حالًا، وعينين زرقاوين صافيتين، بهما نظرة لامعة كالبرق، وفوق وجهها تاج ذهبي رفيع، تتوسطه لؤلؤة خضراء.

اقتربت الفتاة من الأمير، وكان اقترابها غير طبيعي كوجودها. فقد كانت تمدّ ما حولها بدفء يشع منها. كان محيطها دافئًا، كأنها شمس صغيرة. حتى إن أصابع الأمير بدأت في العودة لحركتها الطبيعية، وعاد الدم إلى وجهه، وبدأ يستوعب ما يحدث. صار بينهما خطوة، كان مأخوذا بها، قطعت ذلك بصوتها: مرحبا. نظر إليها مذهولًا، غير متأكد مما سمعه، فقالت: اصنع لي فيلمًا.

لم يدرك ما يحدث، وظن شيئًا من اثنين: أولهما أنه فقد الوعي وأن ما يراه مجرد هلاوس، والثاني أنه يهلوس وهو مستيقظ. وكلما نظر يمينًا ويسارًا، خارج هالة الفتاة الدافئة، وجد أن الثلج يتساقط كما هو. لا يوجد ضوء أو دفء إلا في محيطها، ولم يستطع التركيز في الأمر أكثر من ذلك، فقد كررت طلبها بهدوء.

نظر إلى نفسه، كان وحيدًا، لا يملك كاميرا، ولا ورقًا، وأقلامًا، ولا أفكارًا، لا يعرف كيف عرفت الفتاة أنه صانع أفلام، ولا ما جاء بها إلى هنا في هذا الوقت لتطلب ما طلبته. أشارت الفتاة الدافئة بأصابعها الرقيقة إلى موضع هاتفه المُلقى على الأرض، فأضاء. خطا الأمير إليه والتقطه، وعاد للعمل لكن بلا اتصال بأي شبكة. حاول تحريكه يمينًا ويسارًا لعله يلتقط أي إشارة، لكن بلا فائدة. طلب منها مساعدته وإنقاذ أصدقائه، فقالت إنها لا تعرف إلا طريقًا واحدًا، إليه، ولا تعرف سواه، ثم عادت وذكّرته بطلبها. فكر في الرفض، وكأنها قرأت ما بباله، فأخبرته أنه لو رفض ستختفي، وتتركه لأنياب الثلج يلتهمه، ففكر أن لديه وقتًا ليُنفذ طلب هذه الدافئة حتى تظهر الشمس، أو حتى يقنعها بالبحث عن رفاقه. عليه مجاراتها بأي طريقة، على الأقل لتؤنس وحشته حتى الصباح، ولكن ماذا سيصور في هذا الليل؟

شغّل الكاميرا، واستعان بالقناديل المحيطة بعربتها. وصوّر السماء المظلمة في لقطة طولية، وهبط بالكاميرا بالتدريج، ملتقطا قطرة ثلج تتبعها من بداية ظهورها في الكادر حتى سقوطها على الأرض. واستخدم صوته في التعليق على هذا الفيلم الارتجالي، مشبهًا كرة الثلج بإحدى أميرات ديزني التي ملّت جلوسها طوال الوقت بمنزلها فوق السحاب، ووقعت في حب فارس من أهل الأرض، فقررت مخالفة أوامر أهلها، وهبطت للأرض رغم تحذيرهم لها، لكنها انكمشت وصغرت من الحرارة، وانسخطت إلى قطرة ماء بعدما كانت فوق سحابة ضخمة، وقبل أن تتبخر، سقطت على وجنة حبيبها، فلمست حلمها، قبل أن تموت.

صفقت الفتاة، فبادر الأمير بسؤالها عن كونها حقيقية. فقالت إنها تسكن في مدينة بيضاء بعيدة عن هنا. «وكيف أتيتِ إلى هنا في هذه الليلة؟». قالت إنها كانت تدهن ورق الأشجار باللون الأحمر، حين سقطت منها الفرشة وعلبة الصبغة، واكتشفت أن كل شيء في عالمها تحول للأحمر: شعرها، الأشجار، الشوارع، والمنازل. ولذا، تتبعت خريطة الثلج وعلمت مكانه، وقررت المجيء وأخذ ما تستطيع من لونه الأبيض، لتعيد الألوان في مدينتها لما كانت عليه، وطلبت منه المساعدة.

سألها عن شكل المساعدة المطلوبة، فقالت: «أنا لوّثت مدينتي وغيرت لونها، وكي أستطيع إعادتها كما كانت، عليّ فتح أبواب في السماء، هذه الأبواب سرّية، لا تفتح إلا بأفعال من أشخاص طيبين، وأعتقد أنك شخص طيب، لأنك صنعت لي فيلمًا وحققت أمنيتي وأنت لا تعرفني، ومن كل باب سيفتح، سآخذ جزءًا من الثلج، أدهن به مدينتي، فتعود كما كانت، وتعود مدينتك بلا ثلج، فتجد أصدقاءك». سألها عن الأفعال المطلوبة، وعددها، فقالت: «سبعة».

لم يكن لديه مانع من فعل أي شيء؛ فالليل ممتد، والدفء كذلك، ولا يستطيع تركها حتى يبادلها بالشمس. سألها عن البداية، فقالت إن المنطقة بها ٧ جبال، عليهم صعود القمم السبع، ونثر بعض الثلج بأيديهم لأعلى، حتى يمس السماء، فينفتح باب فيها. همّ بالتحرك معها، وسألها عن وسيلة الصعود، فقالت: «لا تقلق». وعندما بدءوا الحركة نحو الجبل الأول، سألها عن إمكانية إنقاذ أصدقائه التائهين مثله في الصحراء قبل أن يصعد، فقالت إنهم

بخير، وعندما يذهب الثلج لمدينته عبر بوابات السماء، سيتمكن من رؤيتهم.

الجبل الأول

صعدا معا الجبل الأول، وكان الصعود سهلا كأنه بمصعد كهربائي، فقط كانت الفتاة ترفع يدها لأعلى، فترتفع، وتشد الأمير بيدها. في دقائق وجدا نفسيهما على قمة الجبل. فجمع الأمير بعض الثلج من الأرض في كفيه، وهمّ بأن يشربه، ونظر للفتاة، وقال لها: «أخاف على أصدقائي». فقالت مطمئنة: «اترك خوفك». حمل حفنة من الثلج وقربها من فمه، فكانت رائحته كالأرض، شربها، فتغير لون جزء من السماء، وأصبح صافيًا، وكأن يدًا فتحت غطاء بالوعة في السماء، وبمغناطيس عملاق، جذبت بعض الثلج من الأرض لأعلى، في مشهد عجيب، كأنه مطر عكسي!

من أعلى رأى المشهد، وتذكر مع الثلج الصاعد رحلة صعوده إلى هنا. عندما قرر مع رفاقه زيارة منطقة جبلية سياحية، ذهبوا للتسلق وقضاء وقت ممتع والتقاط الصور مع الثلوج التي تزور بلادهم لأول مرة. وكانت رغبتهم أقوى من تقلبات الجو، فاستعدوا جيدا للرحلة، وانطلقوا مع خيوط الشمس الأولى.

قضى الشباب السبعة، ومن بينهم ثلاث فتيات، اليوم الأول كله في الطريق إلى هناك. في المنطقة الجبلية الوعرة التي تحلو فيها المغامرة، وتتزين فيها الصخور بمساحيق التجميل. منّوا أنفسهم بصور مع الجليد الأبيض، وبتماثيل من الثلج لشخصيات كارتونية، وبعض الوقت الصافي بعيدا عن زحام المدينة.

من بين السبعة، كان هناك الأمير، الذي لم يكتشف الجميع مقدار محبته في قلوبهم إلا بعدما رحل. الأمير الذي ما إن تراه حتى تقع أسيرا لبراءة وجهه. كأنه ملاك متخفٍ في لحم ودم. الكل يحبه، العابرون في حياته والأقربون. الكل يتذكر وجهه جيدًا، قابله مرة، التقاه هنا، رآه هناك. هذا الوجه يطبع نفسه في ذاكرتك. بملامح بسيطة حد النقاء الذي لم تعتده الذاكرة، فتركز عينيك في وجهه لتنهل منه ما فاتها من صفات البشر. عينان زيتونيتان، ووجه أبيض، وذقن كثيف ومهذب، وابتسامة هادئة. لو ارتدى عمامة سلطان لحسبته آتيًا من زمن فات. بمظهره هيبة الملوك، وبساطة الفقراء، وفي عينيه نظرة أمل. درس الإخراج السينمائي، واعتاد استثمار وقت فراغه في الخير ومساعدة المحتاجين.

حمل الشباب معهم أشياء كثيرة: معاطف سميكة، وحبالًا، وجوارب، وملابس إضافية، وكشافات للإضاءة، وشاحنًا للبطاريات، وأكلات جافة، وأطعمة معلبة، ودهانًا واقيًا من الشمس، وكُتبًا، ونظارات شمسية. وبالطبع هواتف متصلة بالأقمار الصناعية وشبكات التواصل الاجتماعي. كانوا جميعا يسجلون خطوات رحلتهم أولًا بأول عبر صفحاتهم على تلك المواقع، وسط غبطة الكثيرين لهم على استمتاعهم بسحر هذا المكان.

استخدم الأمير حسابه على موقع للتواصل الاجتماعي، ونشر صورًا من الرحلة، من جلوسه على قمة جبل، من تسلقه لآخر. وكانت آخر صورة نشرها، صورة لقمر أبيض، يحيط به سواد معتم، كُتب أسفلها «القمر مختفٍ خلف الجبل».

نبّهته الصغيرة فأفاق من شروده، تذكر ما حدث لهم، وتذكر المهمة الخيالية، لعله ينقذهم بها.

الجبل الثاني

صعدا الجبل الثاني، وحاول الإسراع هذه المرة لعله يخفف من الصقيع الذي يفتك برفاقه. جمع الثلج في كفيه، وقال لها: «أريد أن أطمئن عليهم، القلق يقتلني»، فقالت: «اترك قلقك». ونثر الثلج، فحدث كما حدث في المرة السابقة.

رأى من أعلى كيف تغير الطقس للأفضل، وتذكر انقلابه للأسوأ قبل ساعات. تذكر عندما رأى قطرات المياه المعلقة بين خيوط الهواء تتصلب وتتثلج، وتتحول إلى رصاصات بيضاء صغيرة، ورائحتها التي تشبه الأشجار العتيقة. استرد في عقله صورًا لأصدقائه، كيف هللوا وفرحوا بهطول الثلج أخيرًا. وكلما كثر على الأرض، ركلوا بعضهم بعضا به، صنعوا كرات صغيرة، وكتبوا أسماءهم وأسماء مَن يحبونهم على الأرض، والتقطوا الصور. انتظروا مزيدًا من الثلج لعمل تماثيل لرجل الجليد، لكن الجبل ابتلع القمر، فسقط خلفه تاركًا ستارة كونية فاحمة السواد، وترك كل مبردات الهواء تعمل على أقصاها.

انخفضت درجة الحرارة بالتدريج حتى تجاوزت الصفر بالسالب، وبدأ الهواء يزحزحهم قليلًا عن بعضهم البعض. شعروا بنشوة الطيران الخفيف. وشغّل أحدهم كشّافًا للإضاءة، لكن يد الهواء كانت أقوى فطار منه. فأخرجت فتاة كشّافًا آخر، ولكنه لم يعمل. وأخرج أحدهم الكشاف الثالث وأمسكه جيدًا. تجمعوا في

شكل حلقة، ووضعوه وثبتوه في منتصفهم وفرشوا الحقائب على الثلج وجلسوا. بدأت وجوههم تحمرّ، وأصابعهم المغطاة بالصوف ترتجف، والخواء يغلفهم بشكل قابض للقلب، فبدأ أحدهم بذكر الله، بقول: «الله حيّ.. الله حيّ».

بدأت الجملة بصوت، ثم صوتين، ثم ثلاثة، فسبعة. كان الجميع يهمس في البداية، وعلا الصوت تدريجيًّا. كانوا يهتزون للأمام والخلف، تمامًا كما في حلقات الذِّكر. هذه هي الطريقة الوحيدة لتدفئة أجسادهم المرتعشة، وقلوبهم المنقبضة. في أذهانهم، رأوا ما يحدث وضعًا مؤقتًا، رحلة وستمر، ثلجًا وسينصهر، تجربة وسيروونها، موقفًا سيئًا سيتحول إلى قصة شائقة يحكونها لأولادهم فيما بعد. زاد البرد؛ فاهتزت شفاههم بقوة يصعب معها النطق، وأسنانهم بدأت في التصطك. لم يستطيعوا الاستمرار في نطق اسم الله، لكن كانوا ينطقونه بقلوبهم، وبأعينهم كلما نظروا لبعضهم البعض، كلما تأملوا في خالق هذا الاتساع الرهيب، وكلما أدركوا أن هذا الاتساع ليس إلا جزءا ضئيلا للغاية من الكون.

الجبل الثالث

في الجبل الثالث أصابه بعض الضيق، كان مشغول البال بما جرى لهم. وهل مات مَن مات فعلًا أم أنقذوه؟ حاول إقناع الفتاة ذات الشعر الأحمر بإكمال المهمة بعد الاطمئنان عليهم، فرفضت، فغضب. ولما وصلا إلى القمة، نظرت إليه كي يجمع الثلج بيده، لكنه رفض فعل ذلك إلا بعد تنفيذ ما يريد، واشتد كلامهما وظهر الضيق عليه، فقالت: «اترك غضبك، لا سبيل إلا هذا»، فجمع

الثلج، وقذف به لأعلى، فكررت قولها، فألجم غضبه، وجمع حفنة بيضاء بهدوء، ونفخ فيه من روحه، فنثره.

اشتدت العاصفة، طار الكشّاف الأخير. وبدأت حقائبهم وأَوْشِحتهم ترقص في الهواء. قالوا سيجمعون أغراضهم في الصباح. وحاولوا تدوين ذلك عبر هواتفهم، لكن الاتصال قد انقطع. قرصتهم البرودة أكثر، شدّوا على أيديهم، واقتربوا في جلستهم، والصقيع يأكل أطرافهم. اقترح أحد الشباب أن تتمركز الفتيات في الوسط، ويحيطوهن بدائرة لحمايتهن. زحفت الفتيات المتماسكات إلى المنتصف، وعندما تحرك الشاب، اقتلعته العاصفة بركلة قوية، فانفلت من يد صديقه. أبعدته خطوات للخلف، فزحف خلفه الآخر، ثم تحركوا جميعا للحاق بالاثنين.

في نفس الوقت، أدرك بعض أصدقائهم في القاهرة انقطاع الاتصال معهم؛ فبدءوا بالبحث عنهم. كانوا هناك، يغطيهم الجبل تحت ذراعه الضخمة كما تخفي الفريسة صيدها عن الأعين. اقترح الأمير أن يقتربوا من الصخور أكثر، ويبحثوا عن صخرة تحميهم من المطر الغزير. أشار للفتيات ليتحركن نحوها، فيما قاوم الهواء، ولحق بصديقيه لجذب الثالث الذي تدحرجه الرياح كما تدحرج الريفيات أنبوب الغاز على الطريق. قبل أن يخطو وجد صديقيه قد عادا، يجُرون الثالث الذي تقاذفته الرياح، بعدما فقد الوعي.

الجبل الرابع

في الرابع، كان المشهد مهيبًا كما رآه على ضوء القمر، نصف الأرض مغطى بالثلج، ونصفها الآخر رمل وصخور، كأرنب مسلوخ

نصفه. أحب أن يلتقط هذا المشهد بكاميرته، ويضعه مستقبلًا في أحد أفلامه، ولما همّ بإخراج الهاتف سألته عما يفعل، فقال: «ألتقط صورة أضعها في فيلمي الذي أحلم بتنفيذه»، قالت: «اترك حلمك»؛ فرفض. فقالت: «هناك أحلام أكبر تنتظرك»، ولما رأى كل ما قالته يتحقق، ترك الهاتف، ونظر طويلًا إلى المشهد ليحفظه في ذاكرته، وجمع الثلج في كفيه، ونثره لأعلى، ونظر إليه وهو يتساقط.

هزّوه، نفضوا الثلج عنه، دلكوا يديه ووجهه، ومد أحدهم يديه إلى صدره وضغط عليه مرات، لكنه لم يشعر بأي نبض أو استجابة. ارتعدوا، وصمتوا، كأنما جمّدهم الثلج. قطع سكونَهم نحيبٌ ضعيف، بكت إحداهن، وانتفضت، وشاركتها الأخريات في البكاء. لا لا، لا يمكن أن يموت، نحن في رحلة! لقد أتينا لنفرح! حاولن حبس الأسئلة التي تبرق في عقولهن، وأدركن فجأة أنهن في الصحراء، ليلًا، مع أصدقاء، وجثة. بينما نظر الشباب الثلاثة إلى زميلهم، جثا أحدهم على ركبته وحاول نفض جسده بكل ما تبقى فيه من قوة، ظل الآخر ساكنًا كأن على رأسه تفاحة تنتظر سهمًا، بينما دمعت عينا الأمير، ولكن حتى الدمعة لم تنزل على خده، بل سرقتها يد العاصفة. عض الخوف قلوبهم، ولم يكن هناك منفذ للدمع أو للصراخ، واتسعت أحداقهم وهم يتأملون الزرقة الممتدة كالحبر الطافح على جلد صديقهم.

لم يفقد الأمير الأمل، حاول إقناعهم بأنها مجرد أزمة، وأنه يمكن إسعاف صديقهم. اقترح تسلق الجبل ربما يستطيع التقاط أي إرسال، منعوه، لكنهم بلا قوة، وبلا حلول، اتفقوا على أن يبقوا جميعًا بالأسفل، وسيصعد هو بمفرده. سار خطوات،

وتسلق الصخور، بيد تنزلق كل قليل من المطر والثلج، صعد عدة أمتار، يتجه يمينًا ويسارًا نحو الصخرة التي يسهل الصعود عليها. كان يسمع صوتهم آتيًا من بعيد، كمن يسمع تسجيل سيارة أجرة في الزحام. وقف قليلًا في مكان مرتفع وأخرج هاتفه، بلا جدوى أو أي إشارة ضئيلة. لم يتمكن من الصعود أكثر، فقرر الهبوط.

الجبل الخامس

كانت المهمة على وشك الانتهاء في الجبل الخامس، سأل نفسه وهو يصعد، عما سيتركه في الجبال الثلاثة القادمة. عندما صعد، تذكر أمه، وإخوته، والاتصالات المقطوعة، ورفاقه الذين يبحثون عنه، ومدينته، وبيته، وعمله، وحبيبته، وكل اللحظات السعيدة التي جمعته بهؤلاء. وكأنما تسمع الفتاة ما يجول بخاطره، فقالت له: «اترك من تحب». فنظر لها مستفسرًا ورافضًا، وقال إنه لن يكمل المهمة إذا كان هذا هو الشرط، فقالت إنه يستطيع عدم إكمال المهمة، لكنها سترحل، والثلج سيعود بغزارة أكبر، وربما يقتله ويقتل أصدقاءه. دمعت عيناه، فقالت: «فارقهم قليلًا؛ تلتقوا إلى الأبد». تردد للحظات، وبكى.. بكى كثيرًا، ولأول مرة شعر بأنه ذاهب بلا رجعة، وفكّر أنه إذا كان موته سينقذ أصدقاءه، فإنه سيفعلها. جمع الثلج، وتخيل كل من يحبهم، ونفخ في كفيه، ولم يره وهو يطير كما كل مرة، فقد أعماه الدمع وشوّش على بصره، سقط بركبتيه على الأرض، وأطلق آهة من أعماقه، ولامس الأرض بجبهته كما في سجوده، كأنه يقبّل الأرض قبل أن يرحل عنها.

الثلج أبيض لا ريب فيه، والمطر ممحاة تزيده بياضًا، والصخور في الليل توائم. من أين صعد؟ وإلى أي اتجاه سيهبط؟ انزلق، وجُرِحَت ركبته، وألم الجرح في البرد مُضاعف، صرخ كأنه يزأر، لكنه تماسك واستمر في الهبوط، والسماء تنافسه في بكائه. نزل على جذعه، استند على ذراعين وساق سليمة. واستغرقت رحلة هبوطه وقتًا طويلًا، وعندما هبط لم يجد أحدًا.

وكمَنْ يسبح عكس تيار نهر جارف؛ حاول المشي والبحث عنهم. وكلما بذل جهدًا، دفعته الرياح أكثر في الاتجاه المضاد، كأنه يعادل الريح في قوتها المغناطيسية. سقط ووقف من جديد، فدفعته مرة أخرى، حاول الزحف على ظهره ففشل. فانقلب يحبو كالطفل، فلسعه الجليد في جرحه، حاول الصراخ لكن العاصفة ملكة الليل، ولا صوت يعلو على صوتها.

أراد العودة إليهم بأي ثمن، حتى لو كان الثمن حياته. لا أحد يحب أن يموت وحيدًا، فما بالك بمن يموت وحيدًا في هذا الخواء الموحش؟ لن يعثر أحد على جسدك، ولا حتى الضباع والصقور! إذا خبأتك الجبال بين طياتها فلن تصبح إلا رفاتًا، لا قبر لك إلا الأرض التي جئت منها. كان الأمير محاصرًا في بطن الجبل كما يونس في بطن حوته. لكنه ليس نبيًّا، وهذا الجليد أشرس من الحوت الطيّب الذي حفظ نبيَّ الله. كلما تخيل ما قد يحدث له بمفرده ارتعش جسده مرتين، مرة للبرد وأخرى للخيال. فقد طاقته بالتدريج، وكذا بطارية هاتفه. استسلم للريح التي تحركه كعروسة ماريونيت، طاوعها وتحرك معها بحثًا عن مكان آمن تحت صخرة تحميه، آمِلًا في ظهور الشمس.

الجبل السادس

عدلته الفتاة عن سجوده، فجفف دمعه. ورغم ما به من حزن، فقد شعر بخفة في الهبوط، كأنه رمى أحمالًا ثقيلةً كان يحملها دون أن يعرف. وفي الجبل السادس لم يعرف ماذا يترك، فسألها، فقالت: «عقلك»، سأل: «وكيف سأتركه؟»، قالت: «لا تسأل عن الآتي». ما الذي أغلى من أحبابه؟ ما العقل أصلًا فيما يحدث له؟ فجمع الثلج، وطيّره، وشعر ببرودة جميلة في دماغه، كأنه يستحم بماء بارد بعد يوم ملتهب. كأن جمجمته مصفاة فارغة، يخترقها الهواء من كل جانب، ويلمس ما بداخلها، فينعشها.

ساعات، أقنع نفسه أنها مجرد ساعات، ساعات فقط وسيخرج منها بقصة عظيمة لفيلم يبدأ به مسيرته المهنية. ماذا سيسمي الفيلم؟ «وحيدًا في الصحراء»؟ «ثلوج سوداء»؟ «لقاء مع الله»؟ خطر بباله لقاء لنبي الله موسى مع الله عز وجل في ظرف مشابه تقريبًا. وذهب بخياله بعيدًا، هل يكون هو الآخر نبيًا؟ ولكن كيف وآخر الأنبياء قد جاء؟ هل يكون المهدي المنتظر؟ هل يكون صاحب معجزة ستهدي كثيرًا من البشر؟ لا، هو ليس بشخص خارق، لكنه سيصنع فيلمًا أسطوريًّا. سيُعجَب الكثيرون بقصته، وسيخوض الغاضبون منه حملة ضده، ويدّعون أن قصة الفيلم حرام لأنها تشبه قصة نبي. لكنه لم يهتم، لقد نجا من هذا الصقيع بفضل الخالق، وهذا دليل دامغ على قدرته، وربما كان ما يحدث درسًا له، أو تجربة روحانية ستقلب حياته رأسًا على عقب. سيرويها في فيلم، ويطوف العالم يحكي قصة نجاته من موت محتوم.

«سأصبر يا إلهي! سأصبر. سأخرج من هنا وأحكي ما حدث في فيلم. أريد صناعة فيلم يعجبك. ساعدني، امنحني بعضًا من الدفء يبقيني حيًّا. امنحني القوة لمواجهة البرد، أريد أن أصنع فيلمًا أسطوريًّا، فيلمًا يراه الفقراء فيعرفون أن هناك دفئًا أكبر في انتظارهم، ويراه الأثرياء فيوقنون أن المال ما هو إلا حطب. أريد فيلمًا يحوز على أكبر جائزة في الكون؛ رضاك!».

الثلج لا يهدأ، كأن السماء سمكة حبلى بآلاف البويضات. بدأت عظامه تؤلمه، حاول فرك يديه وقدميه. دلّك وجهه بالقفازات الصوفية المبتلة. قضى قرابة ساعة متجمدًا جوار قاعدة الجبل. ينظر للسماء ويحاول الابتسام، ثم يغمض عينيه وينفخ في كفيه ويقول: «أعلم أنه اختبار، سأصمد». سينجو، لديه حلم كبير يريد تحقيقه، وستهون الساعات المقبلة من أجل هذا الحلم.

الجبل السابع

عندما وصلا للجبل السابع، طلبت منه ترك جسده، لم يسأل كيف ولماذا ولم، فهو بلا عقل الآن، والخفة التي يشعر بها تغويه أكثر من أي شيء، أكثر من الحياة ذاتها. شعر أنه روح فقط، روح مُحلقة طليقة، كما كان يحلم دائمًا. عندما انفتح باب السماء، أشارت الفتاة بيدها للثلج الصاعد، فتشكل على شكل طريق، وأشارت للعربة الخشبية فطارت نحوهما. وركبا وطارا حتى اخترقا غلاف الأرض. شعر الأمير حينها بنشوة حقيقية، نشوة الوصول للحقيقة، ومعرفة النهاية، وصفاء الروح، وخلو البال، وانعدام الحمل. شعر بأنه تحول لريشة، أو ذرة هواء ربما، صار أخف من

أي شيء، لدرجة أنه يستطيع الطيران خارج الكوكب، كأنه عالِم فضاء أفلت من مركبته وحلّق في السديم. ضحك، ضحك كثيرًا، ورنّت ضحكته في السماء، وشاركته الفتاة الضحك. مرّا على مدينة بيضاء، ففرحت الفتاة أن مدينتها عادت إلى ما كانت عليه، وشكرته، فابتسم. وعند باب المدينة ودّعته، وأضاءت الجوهرة الخضراء في تاجها الذهبي، وأشارت للأعلى وقالت: «مِن هنا». لوحت بيدها لسحابة صغيرة تطير بجانبها، فاقتربت السحابة وحملته وأجلسته على نفسها. فحياها وانطلق، وطارت به السحابة التي تشبه فراء الأرنب الوثير، وهو يضحك من الفيلم الذي دخله ولم يخرج منه!

في اليوم التالي، نشرت الصحف أنباء عن جثث ٧ شباب تم انتشالهم من الصحراء، تعرَّف أهلهم وذووهم عليهم. وكان الأميرُ الأبرزَ بينهم. بَكاهُ الكل، مَن عرفه ومَن لم يعرفه، نزف الجميع دموعًا حارقة، عندما رأوا جثته الهزيلة التي جرّحتها العاصفة الثلجية، ووجهه الذي تجمد، ضاحكًا.

سلم إلى السماء

فرك عينيه أكثر من مرة بعدما تأكد أنه مازال حيًّا، لا جرح فيه ولا كسر، وقف على قدميه وسط الغبار الكثيف غير مصدق ما يراه بعينيه. حسب أنه يتخيل عندما رأى كل شيء قد انهار في ثوانٍ، وبقي فقط الدرج.

في البداية ظن أن ما يراه هو أثرِ القنبلة على عقله. كان المنزل قد انهار تمامًا، درج صاعد وشاهق لأعلى كجذع النخل، لا يحيطه شيء، ولا يوصل لشيء إلا للسماء.

القنبلة التي سقطت قبل قليل أحدثت دويًّا هائلًا في المنطقة، لعله الوحيد الذي مازال حيًّا في هذا الحي. وقف في مكانه الذي لا يعرف كيف انتقل إليه. نظر يمينًا ويسارًا، دار حول نفسه مرّات لكي يرى كيف صار بيته، أو ما كان بيته، وكيف أصبحت بيوت المنطقة بأكملها.

تداخل حطام منزله مع المنازل المجاورة التي دكها الهاون. رأى من مكانه بقايا غسّالة ملابس، وجزءًا من دولاب مطبخ لا يزال متماسكًا، وأطراف ملابس مخفية تحت التراب. فكر في محاولة إنقاذ الآخرين، ولكنه لن يستطيع رفع كل هذا الركام بمفرده، وهو نفسه يحتاج لمن يرفع عنه ركام البلاء. كان يشاهد فقط، كأنه ليس

هو، وكأن ما يحدث حوله فيلم سينمائي لا يستطيع تغيير شيء فيه. لمح دمية برتقالية الشعر، تلبس فستانًا باهت اللون، ربما كان أخضر أو بُنيًّا، تنظر للسماء.

لم يعرف، هل كانت السماء تبكي، أم أنها تتزلزل إثر القنبلة، تفور سُحبها كالبراكين، وتبصق ماءها الغزير في وجه الأرض، لما يسببه سُكانها من إزعاج. على أي حال، الغبار يملأ الجو، والمطر في هذا الوقت حل مثالي لكي تتضح الصورة قليلًا، لعله يرى شيئا غير هذا السلم.

عندما سقطت قطرة على وجه الدمية ذات الشعر البرتقالي، شعر بأنها تبكي فقدان صاحبتها. ورغم الدمار الذي نسف روحه، إلا أن هذا المشهد كان قطعة الدومينو الأولى التي هدت بنيان اللعبة. جثا على ركبتيه بوهن وبكى، كأن هذه الدمية أخرجته من صالة السينما على حمّام بارد، فأدرك فجأة ما يدور حوله. هو يعرف هذه الدمية، رآها في حضن صاحبتها الصغيرة أكثر من مرة، وحاول منع نفسه عن مصير صديقتها. كان فقدان طفل للعبته، أو فقدان الطفل نفسه، أكثر مأساوية وألمًا من هدم كل مدن العالم. هذه الأحلام التي خُلعت من تربتها، قبل أن تنمو ويخضر عودها، لا تصعد إلى السماء، بل تعيدها الأرض لرحمها، أطفال أموات لن يولدوا أبدًا، يعيشون في بطنها مع كل الغضب المكتوم منذ بدء الخليقة.

«ما مطر السماء إلا حزنًا على الصغار، فالكبار يستحقون مطرًا من سجّيل». فكّر وهو يسعل، ويحاول طرد الدخان من رئتيه. تحرك من مكانه، والتقط العروس ذات الشعر البرتقالي. احتجزت صخرةٌ إحدى ذراعيها، فحاول تخليصها منها، فاكتشف أن ذراعها

مفقودة. غسل المطرُ الغزير فستانها كما غسله وأزاح عنه بعض التراب. وضحت الألوان أمام عينيه، فتبين أن فستانها بلون شفق الشمس. حملها بكلتا يديه، ومسح الماء عن خديها.

وجد نفسه في تل من الأنقاض. هبط بحذر منها، سمع خربشات هنا وهناك، واستغاثات آتية من موضع قدميه. رأى في انقشاع الدخان أناسًا يركضون عن بُعد، وصرخات متقطعة توقظ طبلة أذنيه من سُباتها. وكلما زال الدخان، رأى أن السلم مازال موجودًا، صامدًا في مكانه، لم يكن خيالًا أو تهيؤات.

ابتعد خطوات عن الحطام، وبدأ يستوعب على مهل. كل ما سبق حدث في ثوانٍ: القنبلة، والمطر، والعروس، والبكاء، والسلم. فكّر في أن المرء لا يرى درجًا بمفرده كل يوم، نعتاد على صعود وهبوط الدرج دون تفكير، كجزء من كيان أكبر لم نعتد على الاهتمام به. نحن حتى لا نلحظه بأعيننا، نستمر في الصعود والهبوط، كأننا في لعبة السلالم، نقضي حياتنا بين فوق وتحت، ولا نفكر أبدًا في مدى صلابة الأرض التي نمشي عليها، والدرجات التي تحملنا. يبدو أن هذا السلم كان صلبًا للغاية، حمل أثر القنبلة كما حمل مَن صعدوا وهبطوا عليه. تحمّل الكثير، لدرجة انهيار ما حوله وبقائه، تحمّل لدرجة أنه وجد نفسه سلمًا وحيدًا بلا جدران، أو بيت يحميه.

هدأت السحب بالتدريج، وجفّ دمعها، وعندما سقطت ستارة الغبار الكثيفة، تبين أن السماء صافية وزرقاء إلى حد مدهش؛ كعادتها بعد كل مطر عنيف، هذه الدرجة من الأزرق التي لا تراها إلا في أعمق مكان في البحر حيث تختفي الأرض تحتك. تَحرَّك نحو السلم، وكان حذرًا من انهياره عليه. نظر بحثًا عن أي بشر

قريبين، ربما يمكنه إنقاذ أي شخص. اقترب من السلم الذي توسط ركام البيت، ودار حوله. فتح فمه لينادي وقـ... بمَ سينادي؟ مَن سينادي؟ ماذا سيقول؟ ومع مَن يتحدث أصلًا؟ لعله دماغه يريد اختبار حنجرته وما إذا كانت تعمل. اقترب من السلم الكائن على كومة ركام. سقطت منه الدمية على أول درجة، وكأن سمكة عادت إلى الماء، رآها تعتدل وتقف على قدميها. أدرك أن القنبلة لم تؤذه إلا في عقله، فهذا جنون رسميّ، لأنه إذا كان البشر قد سحقتهم القنبلة، فهل تبقى الروح في الدُّمى؟!

اعتدلت الدمية، ونطقت: «ما من أحد هنا لتنادي عليه، رحلت صاحبتي إلى خندق قبل أن تسقط القنبلة، جذبتها أمها وأنا سقطت من يدها على السلم أثناء هرولتهما. عندما سقطت القنبلة دفنتني بين الركام، وقاومْت كي أبقى على السطح».

فتح الرجل فمه ولم ينطق، هناك احتمالان لما يحدث أمامه! صعدت الدمية درجة من السلم، والتفتت للرجل وقالت: «لا تخف، أنا لست حية، أنا دمية، وأحب كوني كذلك، هناك الكثير من الأطفال والكبار يحبونني ويشترونني من المتاجر لأكون صديقتهم، وبعدما ضعت من صاحبتي، مرّ شريط حياتي القصير أمام عيني، ولم ترضني هذه النهاية».

تردد الرجل، تحشرج صوته، ثم نطق: «وأي نهاية تحلم بها دمية؟».

«إن الدمى يجب أن تعيش لفترة أطول، تنتقل من جيل إلى جيل، من الأم لابنتها لحفيدتها، من صديقة لصديقتها، من غنيّ لمتبرع، وهكذا. في كل مرة تنتقل الدمية تكتسب عُمرًا إضافيًا،

وتحتفظ بذكريات أطول. وكل صفّ الدمى الذي صُنع معي مبرمج على هذا، وأنا لم أذهب إلا لبيت صاحبتي، وأريد الانتقال لمزيد من الحيوات».

نظر الرجل حوله، وشعر بالدوار، كان واقفًا بالقرب من السلم. وكأنما أدرك فجأة قُبح الخراب الذي الْتهم كل شيء. لم يكن هناك شيء جميل إلا هذه الدمية، التي صعدت خطوة أخرى على الدرج بقدمها القطنية البرتقالية، وقالت: «إذا كنت تريد أن ترى شيئًا غير ما تبصره، تعالَ معي».

صعدتْ الدرج حتى بلغتْ آخره، وفعل مثلها. رسمتْ بابًا في الهواء، فظهر مكان إشارة أصابعها خيط، وبدأ يتشكل باب أزرق، مرسوم عليه أطفال يرتدون جلابيب بيضاء صغيرة، وأجسادهم متشابكة ومتداخلة، وحمَام مُحلّق فوق رءوسهم، اكتمل الباب وانفتح.

انفتح الباب على قاعة كبيرة شفافة، كأنها مصنوعة من بلور من كل النواحي، لا أرض لها، وإنما طبقة رقيقة من الزجاج تفصلك عن السحاب الطافي أسفلها. في القاعة أجسام طائرة، بالتدقيق فيها وجدها أجزاء بشرية، حدّق بعينيه وابتلع ريقه، وحاول تهدئة انقباضة قلبه.

ذراع، وقلب، وقدم مبتورة، وأصابع منفرطة في الهواء، وضفيرة مرتبة من الشعر الأسود، وعينان، وقدم بساقها، الكل طائر في الهواء كأنه في سفينة فضاء تحلق بعيدًا عن الجاذبية، لكن الفرق أن المنظر مقزز، كأنه في محل جزارة بشرية.

وقفت الدمية تنظر إلى الأجزاء السابحة حولها، وقالت دون أن تنظر لصديقها: «كل جزء من هؤلاء له قصة، أنا مثلًا أبحث عن ذراعي الأخرى، وهناك قدم تبحث عن جوربها، وأصابع عن كفها، وذراع عن قرينتها، وكف عن قفازها. نحن مجتمع مخفي من المهدور حقهم، الذين لا يرتاحون أبدًا. لا يصعدون إلى السماء كاملين، ولا يبقون في الأرض ناقصين، نبقى هنا حتى نعثر على ضالتنا أو نسترد حقنا».

بدا صديقها مسحورًا، يحدق في الأشلاء الطائرة ولا ينطق. التقيا بيد بشرية مزينة بطلاء أظافر أخضر، وخاتم ذهبي أنيق، تبدو لامرأة في شبابها، ترسم في الهواء قلوبًا ونساء جميلات بأجساد فاتنة. اقتربت منهما، وألقت التحية. لم يعرف الرجل مصدر الصوت، كان كأنه قادم من الكف، كأنها ستكتمل شخصًا وتتكلم، ولكنها ظلّت كما هي. سألتها العروس عن قصتها، فقالت: «كنت يدًا لطفلة، ثم امرأة. عشقت الرسم والأواني من صغري، وكنت أرسم نساء جميلات بأجساد جميلة، وأرسم رجالًا بأجساد مستطيلة لا انحناءات بها، وكانت مُعلمتي تلومني دائمًا على عدم رسمي لانحناءات، وتؤكد لي أن الرجال لديهم كل ما لدينا نحن النساء، لديهم انحناءات، وشعر، وقلوب، لم أصدق هذا أبدًا، حتى وقعت عليّ قنبلة، فصلتني عن جسد صاحبتي. فكر فيها رجل، وصنعها رجل، وقذفها عليّ رجل.. كيف أصدق كلام مُعلمتي بعد الآن؟».

مشى قليلًا مع الدمية، واستوقفتهما ذراع تبدو لسيدة، بها جزء من قماش عباءة، وكف بيضاء ممتلئة، مليئة بالتشققات. أخبرتهما

الذراع أنها تنتمي لجسد أم، كانت تمشي وتمسك يد ابنها في يدها، عندما فرقتهما قنبلة إلى ٣ أشياء: طفل، وأُم، وذراع.

تقول الذراع: «لم يمت ابن صاحبتي، لكنه كان ينظر إليّ كأنه غير مصدق أنه يمكن أن أنشطر عن جسد أمه، كان ينظر إليّ كأنني ذراع بلاستيكية، كأنني ذراع دمية أو دبّ قطني، لولا أن الدم كان ينفر من عروقي ويسيل على الأرض، ليصنع خطًّا وهميًّا، بيني وبين جسد أمه الملقى على بُعد خطوات بلا حِراك. تركني الصبي فزعًا وبكى، وأعتقد أنه كرهني لأني انفصلت عن جسد أمه. من يومها وأنا أتوق لاحتضان يد أو ذراع شخص ما كما اعتدت، ولكن أخشى أن أفقدها أو أفقد نفسي».

تقدمتْ نحوهما عينان صغيرتان زرقاوان غاضبتان، يطل منهما الحقد والكراهية. قالتا إنهما لطفل صغير، كان يلعب مع رفاقه أمام البيت، عندما صوّب أحدهم النار نحوهم، فقتل أصدقاءه، بينما فقد بصره هو، وظل هكذا، بعينين تنزفان دمًا، أحمر بدلًا من الأزرق.

كانت هناك قدم وساق، قدم مُلقاة على جانبٍ متصلة بساقها، ترتدي بنطلون جينز أزرق، والقدم مرتدية حذاءها الرياضي الأبيض المربوط بعناية، كأنها تنتظر رفيقتها الأخرى، التي لن تعرف أبدًا أين ذهبت، هي فقط تتذكر أنها كانت تستعد للخروج من البيت، عندما هاجمتها عاصفة من الغبار والركام، ووجدت نفسها بمعزل عن الجسد الذي انتمت إليه طوال عمرها، وأصبحت مثل شجرة بلا جذر، لا أرض تتقبلها.

وقف الرجل والدمية يتأملان ما يدور حولهما، لمحت الدمية

ذراعًا تشبه ذراعها، تحلق بعيدًا وسط غيمة من الأعضاء البشرية، ركضت نحوها وتركت صديقها. لفّ الرجل حول نفسه، ودارت حوله الأشلاء كأنه محورها، وكلما زادت سرعة أفكاره، زاد معها دوران الأشلاء. انتشر الغبار الكثيف فجأة، ركض نحو الباب الوهمي، وهبط الدرج بسرعة، أراد أن يموت مكتملًا، وألا يتشتت جسده بعد رحيله. سمع صوت القنابل مرة أخرى، ركض مبتعدًا عن المكان، وعندما التفت خلفه ليرى الدرج في مكانه ويتحقق مما رآه، وجد الأخير قد انهار تمامًا.

قهوة وأيس كِريم

لديّ صورة واحدة لنفسي على ذاكرة هاتفي، التقطتها لوجهي عندما كنت سعيدة، أردت أن أوثق هذه اللحظة وأتعرف على ملامحي. تبدو عيناي واسعتين، ابتسامتي هادئة، وهناك نور يضيء وجهي. كأني لا أنتظر شيئًا من الحياة ولا أريد منها أن تطلب مني شيئًا. شعرت حينها أن الحياة طيبة معي، وأنها حققت أمنية بسيطة كنت طلبتها دون قصد.

كنت أجلس في سيارته، في شارع مبهج، عندما فاجأني بالتوقف وهبط ليشتري لي أيس كِريم بالفستق، وتركني في المقعد الأمامي مع موسيقى خافتة، بقايا من دخان سجائره، وبقايا سجائر تقاوم التآكل.

كلما رأيت الصورة ذكّرت نفسي بضرورة طباعتها، كي أضعها في صندوق جرائمي الصغيرة؛ سرقاتي التي حصلت عليها من الزمن، أو ربما تغافل عني، كما تفعل الأمهات مع البطاطس المقلية التي يسرقها أطفالها قبل أن توضع على المائدة.

لديّ في هذا الصندوق مجموعة من مجوهراتي الثمينة: بقايا سيجارة ترحب بي بكحّة خفيفة كلما فتحت الصندوق، قداحة التقطتها عندما ذهب إلى الحمّام وتركني وحيدة في المقهى، مخطوطة غير كاملة لقصيدة، ورقة عليها توقيع غير واضح، مرآة

مكسورة أعطتها لي عجوز، تذاكر سينما لأفلام حضرتها بمفردي! أنصاف صور مزّقت بقاياها، وردة ذابلة أهديتها لنفسي ذات مرة، كتيب أدعية صغير أعطته لي أمي.

تنقصني هذه الصورة لتنضم إلى ما سبق، أريد أن أطبعها وأرفقها معها، لكنني كلما نظرت إليها نسيت الأمر، ودققت في ملامح وجهي. كنا في الليل، ضجيج خفيف من حركة المارة وأبواق السيارات تحاول أن تسرقنا من حديث ممتد، يبدو حديثنا مثل شوارع المدينة الضيقة، يعلو ويهبط، نصمت قليلا ثم نغرق في الحديث عن الذكريات، ثم تصعد السيارة إلى الشوارع الجبلية، فنحلم بالمستقبل، ومن أعالي نفكر فيما نريده، ولا نعرف ما هو؛ راحة البال ربما، نركب ونهبط مرة أخرى، وتهبط معنا أحلامنا.

صمم صديقي في هذه الليلة أن أرى المدينة بأكملها، كنا في الليل، ولم نلتق منذ قرابة عامين، وهذه زيارتي الأولى لمدينته، وغدًا سأرحل، ولم يكن لدينا إلا الليلة، وقد كان. لكن أكثر ما يبهجني، ولعله مصدر الضوء على وجهي، هو تلك الأمنية الصغيرة التي تحققت في هذا اليوم.

كنا قد قطعنا عهدًا منذ سنوات، إذا زرت مدينته فسأشرب من قهوتها، شرط أن يختار هو المكان والزمان. بحثنا عن طاولة فارغة في المقهى الممتلئ، ولم نجد إلا واحدة قريبة للغاية من مطرب جلست أمامه، وبمجرد أن أتى النادل، طلبناها، وجلسنا نحاول مقاومة الغناء العالي الذي يشوّش على حديثنا، كان كلامه رطبًا وناعمًا كالغناء، يحكي عن طفولته المشردة، وشبابه الضائع، وخيانات الأهل والأصدقاء والبلد، رغم كآبة ما يحكيه، إلا أنه

كان ناعمًا في اختيار ألفاظه، أو لعل مذاق القهوة وتحقيق أمنيتي البسيطة، أضفيا مذاقًا مميزًا لليلة، يدخن بشراهة، ويحكي بنهم، كأنه كان في انتظاري ليصبّ عليّ كل ما حدث في حياته دفعة واحدة.

انعزلْت في نفسي قليلًا، شعرت بأني آخذ دوري المعتاد، أنصت باهتمام ويحكي لي الناس همومهم، وأفكر كما العادة: «لماذا لا يطلب مني أحد أن أحكي له؟»، ربما لذلك أكتب، أو ربما لأني لم أحكِ من قبل، لا أعرف كيف يكون الحكي. علي أي حال، أستمتع بالسماع إليه، رغم الموسيقى الجميلة المزعجة التي تحاول سرقتنا.

في صندوق سرقاتي الصغير، لديّ صورة معه، نقف متباعدَيْن قليلًا، ذراعاي متقاطعتان، وذراعاه متوازيتان مع جسده، نقف متباعدَيْن، يبدو فرق الطول واضحًا بيننا، فهو أطول مني بحوالي ١٠ سم، وبعيد عني بقرابة نصف متر، كأننا زملاء عمل جاد، اضطررنا لأخذ صورة معًا، رغم أننا لم نكن كذلك حينها، لكن ربما التقطت الصورة ما لم تنطق به روحانا. إلى جانب هذه الصورة ضممت بقايا سيجارة أخرى، ومناديل ببقايا الأيس كِريم بالفستق.

في غرفة الفندق بعد عودتي، عندما نظرت لصندوقي الذي لا يفارقني، شعرت كم أنا بائسة لكي أسرق من الحياة أشياء مثل هذه! وشعرت بسذاجة تفكيري الإجرامي وفشلي كسارقة. عندما فكرت في السرقة سرقت ذكريات، أشياء ربما تؤلمني أو تضحكني، لم أسرق شيئًا أنتفع به، أو شيئًا يمكنني تحطيمه أو بيعه إذا أردت، ولكن كل ما سرقت يمكنه تحطيمي في لحظة، لذلك شدّدت حراستي على الصندوق، وحملته معي أينما ذهبت، كأنني

أحفظ روحي من الانكسار، كأني وضعت قلبي فيه وأخشى إن عثر عليه غيري.

في هذه الليلة، عندما كنا نشرب القهوة التي تواعدنا عليها من سنين، انسحبت من حديثه بين الحين والآخر، كنت أتذوق القهوة ورواسبها الصغيرة على شفتيّ، وكأني أتذوق طعم الأمنيات التي تتحقق، هكذا فجأة، دون تعب أو تخطيط، أتذوق طعم هدايا الحياة التي لم أحصل عليها من قبل. شعرت بأن الحياة تجلس أمامي، وبأنها تهديني فنجانًا من القهوة فانغمست فيه، وددت لو أنه لا ينتهي، وأني سأشرب منه طوال حياتي، دافئة وبمرارة أقل، ورائحتها جميلة، وخالية من الهموم، وبصحبة صديق لا أملّ من الحديث معه، وموسيقى. ما الذي قد يكون أجمل من ذلك؟ انتهيت من الفنجان حتى آخره، وسألني صديقي إن كنت أريد المزيد فوافقت، فاقترح قهوة ثانية في مكان آخر، وبدا ذلك كتحقيق الأمنية بشكل جديد، فذهبنا للشارع المبهج الذي حصلت فيه على الأيس كِريم والصورة.

أوقف السيارة فجأة، وهبط منها ليشتري الأيس كِريم، وتركني مع الأغنيات الخافتة المحرضة، كأن صوتها خلفية لجريمة ستحدث. لم أعرف كيف أقضي الوقت، تابعته وهو يعبر الشارع، وينتظر في طابور قصير من راغبي الأيس كِريم، وبقيت من مكاني أشعر بأن عليّ فعل شيء ما، ولا أعرف ما هو، كنت سعيدة فقط، هكذا، لا أريد أن أفعل أو أطلب أو أفكر في شيء. خطر على بالي أن أرى وجهي في هذه الحالة، فتحت الكاميرا الأمامية لهاتفي لأرى نفسي، والتقطت صورة. وبالرغم من كوننا في الليل، إلا أن الضوء

الخافت منعكس على وجهي، لم تكن أجمل صوري الفوتوغرافية، لكنها الأقرب إلى روحي، لولا أنه مدّ يده بالعلبة لبقيت أتأمل فيها طوال الليل.

في الشارع الذي كنا فيه، والذي كان على قمة جبل، كنا نرى في آخر المنحدر بيوتًا كثيرة، مضيئة ومتراصة، كأنها مصابيح ليلية متدرجة من أسفل إلى أعلى، وفي القمة نجوم تضيء معها الليل. كان المشهد ساحرًا، بحلاوة الفستق في الأيس كِريم، والليل الممتد أمامنا، والقصص التي نقلب أدراج عقولنا وقلوبنا لنحكيها. هبطنا بالسيارة قليلًا، وقفنا أمام شارع مواجهٍ للبيوت، تبدو واضحة هنا في تدرجها على الجبل. جلس على حافة الرصيف، وجلست إلى جواره، تأمل في النجوم وفعلت مثله، ورفع هاتفه فجأة والتقطنا صورة أخرى، وفي هذه الصورة التي وضعتها لاحقًا في صندوقي، كنا أقرب قليلًا!

الخروج من عباءة العالم

تقول الأسطورة إن الملوك كانوا يستولدون الخيول بطريقة غريبة ومميزة للغاية، لتكون لديهم مجموعة من الخيول لا مثيل لها.

كان الملوك يرسلون أجمل إناث الخيل وأحسنها إلى شطآن الجُزُر، وفي منتصف الشهر مع ظهور القمر، يختفي حراس الخيول في خنادق، لأنهم لا يجرءون أبدًا على النظر لما يحدث، ولأن وجودهم على الأرض قد يفسد كل شيء. فيتركون الخيول على الشاطئ بعد ربط أرجلها بحبال طويلة بالأشجار القريبة، وفي الليل عندما يتوسط القمر السماء، تخرج أحصنة ذهبية من البحر، وتأخذ غرضها من الخيل التي تعجبها، وتعود للماء. فتحمل الأنثى وتلد مُهرًا لا مثيل له؛ بخليط من السحر والجَمال.

لطالما حلمت بهذه الأسطورة، كنت أحلم برؤية خيل ذهبية، وركوبها، والذهاب معها إلى عالمها الذي لم يدخله بشر من قبل. وعندما كبرت، رغبت في تحقيق حلمي القديم. كان لديّ فائض من الهوس الذي يدفعني لأي شيء، وأيقنت أن الأساطير لها أصل حقيقي لم يستطع البشر التأكد منه، وبتُّ أنام وأقوم حالمًا بِخَيل ذهبية، أمتطيها وأذهب لعالم جديد.

توفي والدي منذ كنت طفلًا، وفقدت أهلي واحدًا تلو الآخر في

حوادث موت متفرقة. كبرت وحدي، وأنفقت ما بقي لديّ من إرث على طعامي وشرابي حتى نفد. وعملت في مهن كثيرة في ربيع شبابي، وصِرت أتعلم من كل شخص أقابله، وأستمع له، وأسأله سؤالًا واحدًا: «ما هو أغرب شيء رأيته في حياتك؟». كان البعض يروي لي أحلامًا وخيالات، والبعض يقسم بأنها حقيقية. مثل بشر يطيرون، وجنيّات في الغابة، وتنين عظيم، وطيور خارقة عملاقة، وحيوانات شفافة، وأيقنت أن بعض البشر يحظون بمساحة لرؤية النوادر، إذا ما كانوا قادرين على خوض المغامرات.

قررت العمل باجتهاد لمدة عام، لأجمع مبلغًا وأبدأ البحث عن مكان أشتري منه خيلًا جميلة كخطوة أولى للحلم، وفي خلال هذا العام، عليّ البحث عن شواطئ وردت في حكايات الناس عن الملوك. عملت في كل شيء: حمّالًا وطبّاخًا وخبّازًا وحلّاقًا ومساعدَ تاجرٍ وبحّارًا وخادمًا. كسبت مالًا كثيرًا بسبب مهاراتي وإتقاني للعمل، حتى جمعت المال الكافي لشراء حصان جميل.

ذهبت لشخص يمتلك الكثير من الخيول، وطلبت منه شراء إحداها، فضحك من حالي، وهنا انتبهت لما أنا عليه، شابّ حسن الشكل، لكنه رثّ الملبس، وفقير الهيئة، لا جاه له ولا أهل، ولا يمتلك إلا النقود التي لا تليق على مظهري. استغرب الرجل مني، وانتابه شيء من الشك والريبة، وامتنع عن البيع لي خوفًا من أن أكون لصًّا. وأخبرني أنه يربي خيوله بعناية فائقة لكي يشتريها الحكام والأمراء وليس الصعاليك أمثالي، وأنه بالتأكيد سيحصل على سعر أفضل إذا باعها لصاحب نفوذ، كما أنه سيكون مطمئنًا على الخيل بعد بيعها.

عُدت إلى منزلي أحمل نقودي وأبحث عن حل، وقررت ليلتها العمل لعام آخر، أحسّن فيه هيئتي، وأشتري ثيابًا وبيتًا، وفعلت ذلك. وأمّنت مبلغًا من المال أنفق به على الخيل التي سأشتريها. وعُدت لصاحب الخيل فلم يعرفني، ولما ظن أني تاجر من الأغنياء، اصطحبني في جولة لتفقد الخيل كلها، وانبهرت من جمالها وأصالتها وقوة أجسادها، وبحثت بين الإناث عن أجملها التي ستجذب الخيل الذهبي بمجرد ظهوره على الشاطئ، على مرادي. كانت أنثى جميلة، ممشوقة الجسد، لونها كالعسل، وشعرها ذهبي مموج كشعر النساء الجميلات، وبه ضفيرة صغيرة ممتدة من غرّتها على جانبَي وجهها، وجلدها لامع بلا خدوش أو جروح، كانت أكثرهما سِحرًا وجمالًا ودلالًا في عيني، فاشتريتها وعُدت بها للمنزل. وفي طريق عودتي، رأيتها تخطف أعين الناس في الشارع، يهتفون باسم الخالق الذي صورها وأحسن شكلها، فزادت فرحتي، وتيقنت من قُرب تحقيق حلمي.

جهزت ما أملك من مال وارتديت أفضل ملابسي. وربطت بعض الأغراض وحملتها وسحبت الخيل، وانطلقت باحثًا عن سفينة تأخذني إلى شاطئ على جزيرة وردت في روايات الناس عن الخيل الذهبية. وعلى الميناء؛ وجدت سفينة يُحمّل عليها التجار بضائعهم وأملاكهم، وسألتهم عما إذا كان بها مكان لهذه الخيل، وكانت جميلة فتفاءلوا بها على مركبهم، وخصصوا لها مكانًا مميزًا إلى جوار الحيوانات المسافرة. أما أنا فبقيت على الميناء حتى ينتهي تحميل البضائع.

دخلت أحد المتاجر لأشتري طعامًا أتزود به خلال رحلتي،

واشتريت خُبزًا وجُبنًا وأسماكًا مجففة، وعندما خرجت صُعقت. فقد كانت هناك سيدة بشعة المنظر أمامي. لكني تمالكت نفسي وتنحيت جانبًا في هدوء، خوفًا من أن تكون مجنونة فتُحدث بي شرًّا. ولاحظت أنها عجوز ترتدي ملابس ملونة غريبة لا تليق بعمرها، وتضع ألوانًا حمراء وصفراء على وجهها، وتصبغ كل جزء من وجهها بلون، وحول عينيها كُحل كثيف لا يُخفي تجاعيدها قدر ما يبرزها.

تصلب جسدي مكاني، كنت مذعورًا وأحاول إخفاء ذعري. ويبدو أن رجلا من أهل الحيّ لاحظ ما أنا فيه، فاقترب وهمس: «لقد كانت غانية في شبابها» وضحك ومشى. ومشيت لألحق بالمركب، وناداني صوت داخلي بأن هذه العجوز مثل الدنيا وزينتها، وأننا لا نأخذ منها إلا القليل، لذلك لا ضرر من المخاطرة بفكرة مجنونة بين حين وآخر. وقدر انقباض قلبي فور رؤيتها، شعرت بتحسن لما توصل إليه عقلي، وبأنها فأل خير، فصعدت إلى المركب.

تركت الخيل بعد أن وضعت لها الطعام وربتّ على رقبتها الملساء، وصعدت إلى سطح المركب، حيث الهواء الطلق والأفق بلا نهاية، واخترت لي زاوية بجانب أحد القوارب الصغيرة المعلقة على حافة المركب الضخم، ربما بسبب قلقي من الماء. تأملت المنظر: الشمس كالبرتقال الدمويّ، والبحر هادئ وأزرق وممتد، فمددت جسدي داخل المركب الصغير، وذهبت في غفوة.

في غفوتي رأيت شيئًا غريبًا، ربما أكثر من حلم، أو كان حلمًا واحدًا طويلًا. رأيت نفسي أجلس في ركن حجرة جدرانها خضراء اللون، وأضع كرسيًّا بمسند لمرفق اليد في زاوية الحجرة، وأمامه كرسي آخر، وباقي الغرفة فارغ تمامًا. وفجأة وجدت أمامي شابة سمراء،

تحكي لي عن حلم غريب حلمته، كانت تعمل في مجال الهندسة، وانتهت حياتها المدرسية منذ وقت بعيد، إلا أن حلمًا راودها بالفشل في امتحانات المدرسة، والرسوب لأعوام متتالية، وسألتها هل تشعر بالخوف؟ فقالت: «القلق.. أنا دائمًا قلقة». وتركتني وذهبت.

تأملت ما قالته الشابة، وأخرجتني من تفكيري شابة أخرى جلست أمامي، وبدأتْ في سرد حلم جديد، لا أدري ما الذي أفعله في هذه الغرفة الخضراء، ومن أين يأتي الناس، ولماذا يأتون إليّ تحديدا، ولكني سمعتهم على أي حال. تحدثَتِ الثانية عن خوفها من ثعبان ضخم يطاردها في أحلامها، كان يركض وراءها في ممرات أحد المباني، حتى نال منها بلدغة، فشَعرَتْ بألم شديد، وشعرتُ بقشعريرة تكهرب جسدي. فاستطردتْ، وقالت إنها عندما أصابها ما أصابها، قررت أن تُمثّل فقدان الوعي لعله يتركها ويذهب، وبالفعل حدث ذلك، وعندما رأته ابتعد عنها، هربت في الاتجاه المضاد من ممرات المبنى، وهناك، وجدت إحدى قريباتها، وبمجرد أن رأتها ارتمت على الأرض.

كان هذا مرعبًا بحق، شعرْت بالخوف في منامي، وتساءلت عما ترمز إليه الغرفة الخضراء في حياتي، ولكن رجلًا ثالثًا في أواخر شبابه جاء وفعل مثل مَن سبقه، وحكى عن حلمه. قال إنه يحلم كثيرًا بالانتقال عبر آلة سحرية من مكان إلى آخر، حيث لا يعرف الناس ولا يعرفونه، ولكن لديه في عقله مهام محددة يريد تنفيذها، فيعمل جاهدًا، لأعوام طويلة جدًّا، ينسى فيها أهله وناسه وبلاده، ولا يتذكر فقط إلا هذه الوجوه المحيطة به، والتي لا يعرف منها أحدًا. ويجد نفسه فجأة في حلمه، مجعد الوجه، مقبوض الصدر، لا يستطيع

التنفس أو الكلام، ولا يتذكر إلا تلك الآلة السحرية العجيبة العابرة للزمن، التي تخرج منها ذراع وتقبض روحه.

وعلى الرغم من غرابة الحلم، إلا أني شعرت باستمتاع من اختلاف الحكايات وتأويلها. وأحببت قصص الناس، وشعرت بأني أبحث لهم عن باب يخرجون منه من كوابيسهم كما أبحث لنفسي عن باب في جدار الغرفة الخضراء، وأبحث عن نفسي في قصصهم وسبب مجيئها إليّ.

جاء رجل وجلس أمامي، وجهه يشير إلى بداية الأربعينيات. لديه تجاعيد صغيرة حول عينيه وفمه، ويُضيق عينيه كلما تكلم. حكى لي أنه لا يحلم أبدًا. ولم يحلم في حياته كلها إلا مرة، ورأى هذا الحلم منذ سنوات ولم يتكرر. ولم يفهم سبب مجيئه، لقد كان بلا أحلام، لماذا تؤرق حياته رؤية أو حلم لم يظهر ثانية؟ حلم بأن هناك اثنين من الخيول البيضاء، خيول جميلة وجذابة للغاية، ربما أجمل خيول رآها في حياته، يراقبهما رجل كبير في السن، ويتبعهما إلى حيث ذهبا، حتى قفزا فجأة سورًا عظيمًا ودخلا إلى محطة قطار، فقفز خلفهما صاحب الحلم، وهناك، اختفى الثلاثة.

نطقت لأول مرة في الحلم، وقلت: «لعلّ هذه الخيول أحلامك الجميلة التي لم تظهر لك في حياتك إلا مرة واحدة، وربما تكون أنت العجوز الذي يندم في شيبته على الامتناع عن الحلم»، سكت قليلًا وأعجبه الرد، وقال: «ربما، فعلًا هي الصورة الأقرب، أشكرك»، وذهب. وشعرت بثقل شديد في رأسي، وبأن شيئًا يعضّني في خصري. تألمت كثيرًا، وضاقت بي الغرفة الخضراء وشعرت بجسدي يكبر من القصص والغرفة تتضاءل. صرخت في

مدتي. وتركت الصورة بيديه قبل أن أصبح أكبر منه ولا أستطيع الخروج. وبعد فترة من مقبض الباب، هرب مني وابتعد، فصرخت: أنقذوني.. أنقذوني!، وإذا بكمٍّ هائل من الماء ينصبُّ عليّ. ووجدت نفسي مرة أخرى على سطح السفينة.

كان أحد البحارة قد سمع همهماتي وأنا نائم، ورجح أن يكون عقلي مشغولًا بالبحر أو شيء مثل هذا. قمت، وتوضأت وصليت، وخرجت وشربت شايًا ساخنًا معه، ثم تركته لأتفقد السفينة. كانت ضخمة. تشعر أن أرضيتها مصنوعة من الخشب لكنها معدنية، ملامحها صلبة. وهناك أشرعة معلقة بالقرب من حافتها. رأيت الكثير من الناس يقتربون من السطح، ربما فضّلوا البقاء هنا عن المكوث في الغرف الكبيرة الخانقة. وصلت إلى مكان منخفض في مؤخرة السفينة، بل قريبًا جدًّا من الماء، فوقفت عنده قليلًا.

كان هناك شيء غريب في ماء البحر، كلما نظرت للماء رأيت أشكالًا تتحرك على سطحه. خطر ببالي دوار البحر، ولكن لا، أنا في كامل وعيي. تأملت الماء أكثر ونظرت نحو العمق، فرأيت سمكات ذهبية كبيرة تسبح إلى جوار السفينة، فتابعتها حتى ذهبت، ثم عاد الماء للأزرق مرة أخرى. جلست على حافة المركب ولامست الماء بطرف قدميّ. ودققت النظر في حركات الموج ورأيت أشكالًا أخرى، وبالتدقيق فيها، وجدت وجوهَ ناسٍ لم أعرفهم ولكنها بدت وجوهًا بشرية حقيقية تمامًا، رجلًا أسمر بشارب، ورجلًا أبيض بلحية خفيفة، وسيدة بشعر أسود، وهكذا كلما حدقت بالماء رأيت مزيدًا من الناس. وشعرت بكهرباء في جسدي مرة أخرى، وبأني تجمدت في مكاني من الرعب.

جاء البحار الذي تركته قبل قليل وأخبرني ألا أضع قدمي في الماء لأن هناك أسماكا شرسة في أعماق البحار قد ترغب في تذوّق طعم لحمي، ويبدو أنني لم أستمع له لأنه كرر طلبه مع هزّ كتفي، فانتفضت، وقمت سريعًا من مكاني، ومشينا معًا لمكاني الأول على سطح المركب.

سألته منذ متى وهو يعمل بحارًا؟ فقال منذ كان صبيًّا صغيرًا يُبحر على مركب أبيه للصيد، فلحقته بسؤال ثانٍ «هل رأيت شيئًا غريبًا في البحر من قبل؟»، فقال: «الأسماك فقط، بعضها ملون وغريب الشكل، يخرج من الماء فجأة ويعود كأنه قوس قزح». وسألته: «متى أرى هذه الأسماك الجميلة؟»، قال: «ليلًا، انتظرها وستخرج من الماء».

بقيت الليل كله على سطح المركب في انتظار سمكات البحار الغريبة، وأعتقد أنه ربما تكون خيالًا أو أسطورة عن البحر كما أسطورة خيلي الجميلة، وقررت، إذا كانت حقيقة فسأراها، وإن كانت أسطورة فسأعرف سببها، وفي كل حال لست بخاسرٍ لأي شيء. تأملت الماء الأسود كالحبر، والمخلوط بلون الليل كأن الكون بين ذراعَي ساحر يرتدي عباءته السوداء الضخمة التي لا أول لها من آخر، تخفي أشياء وتظهرها حسب رغبة صاحبها، أخفت هذه العباءة الكونية الشمس، وأظهرت القمر، ومكثتُ أنا في انتظار السمكات حتى أوشكت الشمس على المجيء.

فجأة ظهرت في الأفق خطوط ملونة، على شكل نصف دائرة، كان ضوء الشمس ما زال خافتًا ولكن الأضواء الصغيرة التي تخرج من الماء واضحة تمامًا في الأفق. تَشكّل أفق البحر فجأة على هيئة

أقواس صغيرة، أنصاف دوائر، تخرج من الماء وتطير وتغوص، أجسام لها وميض غريب، ملونة، ومبهجة، أحمر وأصفر وأخضر وأزرق، بعضها يمكن رؤيته بوضوح. رأيت سمكات صغيرة ملونة تطير مع بعضها البعض في وقت واحد وتعود للماء، وتكرر ما فعلته، وخلفها أسراب من الأسماك الملونة. كان المشهد كأنك تمسك حزمة أقلام ملونة وتخطّ بها جميعًا، ودخل ضوء الشمس في خلفية الصورة وزادها جمالًا ووضوحًا، وبمجرد أن اشتد الضوء، اختفى كل شيء، وعاد البحر كما كان.

نِمت لبعض الوقت، وكنت سعيدًا بما رأيت للغاية، فقد ملأني ببهجة عظيمة وشحنني لتحقيق حلمي، استيقظت في الظهيرة وكنا على وشك الوصول للشاطئ الذي أنشده.

أنزلني صاحب المركب على شاطئ إحدى الجزر مع خيلي وحمولتي، واستكمل هو رحلته في البحر. نظرت حولي وكان كل شيء مبهجًا إلى حد لا يُصدّق، أشجار خضراء مغوية، والثمار تتدلى منها كأنها تنطق وتقول «اقطفني». شعرت بالوحدة لبعض الوقت، ولكني عدت وذكّرت نفسي بحلمي، كان عليّ التقدم للأمام مهما كان الثمن، ومهما كنت مجنونًا في نظر الناس، هي حياتي وسأعيشها مرة واحدة؛ إما وصلت لما أرغب، وإما مت في سبيله.

كدت أن أفقد اتزاني وأنا أتذكر أوجه الغرباء الذين التقيتهم في الحلم، وشعرت بأن وجوههم تأتي من مكان عتيق في ذاكرتي، كأني خبأتهم منذ زمن فيها. رأيت وجوههم على أجساد الأشجار أثناء سيري في الجزيرة، متغيرة التعابير، أحيانًا ضاحكة، وأحيانًا باكية، وأخرى جامدة. مشيت في الثنيات الملتوية، وأردت أن أتخلص

منهم وأبعثرهم. وكلما مررت بجوار شجرة ضخمة ألبستها وجهًا، وعبرت إلى جوارها بتجاهل لأنساها، ولكن الوجوه تعود وتقفز أمامي كأنها قِرَدة.

تراقصت أغصان الأشجار حولي، وتدلى من أوراقها المزيد من الوجوه، وكلما تجاهلتها وحاولت الهرب منها زادت وانتشرت، والتفّت حولي، فتمسكت أكثر بخيلي، وحاولت شق طريقي بين العيون المحدقة. لمست شعر الخيل وربتُّ على رقبتها، وشعرت فجأة بأني أفتقد أهلي، ووطني، وراودني الكثير من الأسئلة التي غطت على عقلي كالغيوم فوق مدينة جفّت من العطش. تأملت الأرض المشققة كراحة اليد، ولوهلة ظننتني عرّافًا أقرأ مصيري المرسوم عليها.

وجدت أمامي حفرة عميقة غريبة الشكل، تعلو وتهبط، يتغير عمقها كأنها سنام جمل مقلوب متحرك، خِفت من السقوط فيها، وتمسكت بخيلي وحمولتي الصغيرة جيدًا. فكرت في العودة للشاطئ واختيار مدخل جديد، ولكني علمت استحالة الأمر بعدما نظرت خلفي ووجدت الأشجار تشابكت. لم يكن أمامي إلا عبور هذه الحفرة، فوقفت وفكرت. كانت مخيفة، كأن الأرض ستبتلعك في بطنها ثم تلفظك خارجها، وكان عليّ أن أواجه خوفي من الفشل في عبورها، لم يكن أمامي حل آخر فتشجعت، وقلت لنفسي إما أن تقتلني وإما أن أعبرها، ووضعت قدمي على أولها.

انزلقت، وابتلعتني الحفرة صعودًا وهبوطًا، كأني لقمة في معدة. شعرت بغثيان، وأغمضت عيني، وكان آخر ما رأيته صورة مقلوبة كانت فيها قدمي عالية في السماء. أوشكت على الاختناق،

وتحشرج صوتي ولم أستطع الاستغاثة بالخيل. ظننت أنها نهايتي، لولا أني رأيت خيلي تصهل وتقفز، وتذكرت حلمي الذي أتيت لتحقيقه، فتشجعت مرة أخرى. عندما لفظتني الحفرة للقِمّة، تمسكت بحافتها، وقاومت الانجذاب الشديد للأسفل، وصعدت، وبمجرد أن فعلت اختفت الحفرة، وعبرت الخيل نحوي ولعقت التراب من على وجهي.

مررنا بجوار بحيرة شديدة الزرقة، وزاد من زرقتها اخضرار ما حولها، جلست لأرتاح وأطعم الخيل وآكل ثمرات من الأشجار، وغفوت بعد معركتي مع التراب. وعندما فتحت عينيّ كانت هناك عين أكبر منها تحدق فيّ، فأغمضت وحاولت استيعاب ما يحدث. وجسدي ينتفض من هول ما رأى. أحسست بشيء حاد يمسك قميصي، ففتحت عيني، ورأيت منقار طائر ضخم يعبث فيما أرتديه. وعندما لاحظ انتباهي، قبض على خصري فجأة، وحملني وطار.

حاولت الإفلات من قبضته، لعلني أسقط على قبّة شجرة أو في ماء البحيرة. وكلما تملصت منه قبض عليّ أكثر بأظافر قدميه الطويلتين، فخارت قواي، ونظرْت إلى خيلي التي تصهل وترفع قدميها نحو السماء. وفكّرت أنه ربما يزهد في أكلي إذا عرف أني متّ، فأرخيت جسدي أكثر، وصرت مثل بندول الساعة، أتأرجح دون مقاومة مني، حتى هدأ الطائر الضخم، وهبط بي فوق تلّ قريب من البحيرة. كنت أرقب خيلي من أعلى وهي تنظر إليّ وتصهل دون انقطاع. رماني الطائر الضخم على التلّ فجأة، واصطدم رأسي بصخرة فنزف دمًا، ولم أدرك أني فقدت وعيي إلا بعدما عاد إليّ، ووجدتني مرميًا حيث تركني، بملابسي الممزقة، والدم المتصلب

على جسدي، وخيلي إلى جواري، فوق قمّة تلّ يكشف الجزيرة بأكملها.

أدركت لاحقًا أن ما فعله الطائر الضخم لم يكن بهذا السوء، فقد نقلني من القاع إلى القمّة كأنه آلة سحرية. وفي مكاني الجديد مكثت بضعة أيام. راقبت حركة المدّ والجَزْر، وظهور القمر بالتدريج، وكنت قريبًا أيضًا من الأشجار وثمارها، وجوارنا مجرى صغير من الماء يصبّ في البحيرة. بقيت في المكان قرابة شهر، رأيت فيه أشباحَ سفن تظهر وتختفي، وتعرفت على سكّان الجزيرة من طيور وثعالب وقِرَدة وسناجب، ورأيت سلاحف تظهر على الشاطئ بين حين وآخر. أما الطيور فكانت لا تُعد ولا تُحصى، بداية من الصغيرة بحجم راحة اليد، وحتى هذا الضخم الذي كاد يقتلني، والذي لمحته مرتين واختبأت بين الأشجار فلم يستطع رؤيتي.

لم أشتق إلى شيء إلا الكلام، كنت أتكلم مع الخيل لساعات، ومع السماء والبحر، والنجوم، والطيور، والحيوانات، لكن ذلك لم يروِ عطشي لسماع صوت بشري يخاطبني. اشتقت لأي شخص عرفته، وقلت لنفسي إن هذه ضريبة الحلم، وإني بمجرد تحقيق حلمي سأنتقل إلى عالم جديد سينسيني ذلك تمامًا. وفي هذه الأيام رأيت منامات كثيرة بها خيول بيضاء، أحيانًا متفرقة وأحيانًا تسير في مجموعات. نظر واحد منها في عيني كأنه يخاطبني، أو يوصل رسالة ما، علمت بحدسي أنها الإشارة.

توجهت في الصباح بخيلي إلى حافة الشاطئ، وحفرت خندقًا يسمح لي بالرؤية والاختفاء في آن واحد. مددت حبلًا طويلًا وربطته في قدم الخيل وربتّ على عنقها، ودعوت أن تظل سالمة

فهي جميلة وطيبة ولا تستحق أن تؤذَى بسبب حلمي. وانتظرت لساعات حتى غابت الشمس وحلّ مكانها القمر؛ القرص الفضّي، كأنه زرار لامع في قميص الكون الأسود. اختبأت في خندقي، وانتظرت، كان التعب يراودني عن نفسي لأنام بعد يوم شاق من الحفر، وأيام طويلة من الصبر، وكدت أستسلم للنوم لولا أني رأيته آتيًا من بعيد.

آتيًا من العتمة، كان هناك كأنه نصل سكين يشق السواد. قطيع من الأحصنة البيضاء شاهقة الجمال، وشعرها الطويل يتطاير خلفها ويلمس القمر، كأن شعرها آشعة من فضّة القمر. تقدم كبيرها نحو الخيل المربوطة على الشاطئ، والتي يبدو أنها أيضًا كانت في نفس درجة ذهولي. ليس فقط بسبب ما يحدث، وإنما لأن الحصان الذي تقدم نحوها كان شديد الجمال، أبيض الجسد، وشعر عنقه بألوان الطيف السبعة، وهالة من الضوء الملون حوله. شككت في عقلي، وفي بصري، وفي ما يحدث حولي. هل هذا يحدث فعلًا أم ما أردت حدوثه؟ هل أرى ما أرى؟ أم عقلي يهيئ لي ذلك؟ اختبأت في الخندق، وتحسست جسدي والتراب لأتأكد من ملمس ما حولي وحقيقته. سمعت صهيلًا عاليًا، واختلط بصوت آخر كصوت البحر. حفزت نفسي، وصعدت مرة أخرى لأرى ما يحدث، لم أجد خيلي، ووجدت فقط الحصان الآخر.

حاولت الاختباء لكي لا ألفت نظره، ولكنه كما لو كان يعلم بوجودي منذ البداية، ينظر نحو الخندق نظرة مَن يعلم مَن بداخله. اختبأت ثانية وكلما حاولت التقاط نظرة وجدته يحدّق في مكان الخندق. في النهاية صعدت بالتدريج، كان ثابتًا على الشاطئ في

مكانه، ومن حوله هالة النور الملون، ينظر إليّ ولا يتحرك كما التمثال. نظرت حولي أبحث عن خيلي فلم أجدها على الأرض، وإنما بين صفوف الأحصنة التي جاءت مع هذا الأبيض. لا أعرف إن كانت تقف على الماء أم تطير، كانت جميعها معلقة بين السماء والأرض، بخيوط من فضّة يبعثها القمر للأرض في شعورها، وظل هذا الوحيد واقفًا على الشاطئ يرقبني، فاقتربت منه.

كان ذلك أغرب شيء حدث لي في حياتي، كلما مددت يدي لألمسه شعرت بأن يدي تنغمس فيه، تخترقه، وتعبر طبقة كثيفة من الهواء وتدخل إلى مكان دافئ. بدت هالة النور المحيطة به، كأنها لآلئ ملونة؛ أحمر وأصفر وأزرق ونِيلي، ورأيت فيها شريط حياتي وما حدث لي منذ ولادتي حتى قررت المجيء إلى هنا. نزل الحصان على ركبتيه، فاعتليته، ومشينا نحو الماء الذي لم يلمس أقدامه الأربع. ابتعدنا عن رمل الشاطئ الذي بدا لامعًا كالذهب، وطرنا نحو قطيع الأحصنة الذي ينتظرنا في الأفق. تقدمه صاحبي كأنه قائد القطيع، ونظرت خلفي فرأيت القطيع صفًا ومن بينه خيلي التي أصبحت تشبهه الأحصنة. نظرت أمامي، فرأيت حصاني يركض كالبرق نحو القمر. يرتفع ويسمو، وكلما اقتربت من القمر، رأيته أوضح، لم يكن صخرًا ولا كوكبًا، بل بوابة من نور، عبرت منها إلى عالم أكثر رحابة!

قهوة وأيس كريم

بتجربتها وقاموسها الخاص، بقدرتها على التعبير عن تفاصيل المشاعر والأحاسيس، وبراعتها في رصد تلك المساحة الفارغة بين الحلم والواقع، تطرز بسمة العوفي قصص هذه المجموعة الثلاث عشرة؛ كل واحدة منها بمذاق مختلف و"وصفة" فنية فريدة تتحدى بها رجفات الإحساس بالوحدة والخوف، سلاحا تواجه به العزلة والاغتراب، وتحكي بعمق عن لحظات الحب القصيرة، بحساسية عالية تجعلها قادرة على استدعاء الأصوات والصور والألوان وتمزجها في لوحات قصصية بديعة.

بسمة العوفي: كاتبة مصرية تعمل منتجة ومطورة للمحتوى الرقمي في مجال الإعلام. عملت في مؤسسات متنوعة مثل شبكة الصحفيين الدوليين، مجموعة قنوات MBC، وأكاديمية دويتش فيله الألمانية. تم إدراج اسمها مرتين عامي ٢٠١٥ و٢٠١٧ ضمن الفائزين في القائمة القصيرة لمسابقة "بحر من الكلمات" التي تنظمها مؤسسة "آنا ليندا" والمعهد الأوروبي للبحر المتوسط. وتم ترشيحها لجائزة "التميز" من قبل منتدى الكويت للإعلام عام ٢٠١٦ عن فرع القصة القصيرة. لها ٣ كتب منشورة وهم "كلاب الشوارع"، و"كعب عالي" و"حب من طرف تالت"، كما شاركت بنشر الكثير من المقالات عبر صحف ومواقع، مصرية وعربية.



دار الشروق
www.shorouk.com